الأدلة القواطع والبراهين

في إبطال أصول الملحدين

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

مكتبة المعارف
الرياض

طبعة جديدة
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

مكتبة المعارف - ص.ب: ٣٢٨١ - هاتف ٢٣٩٧٩
الرياض - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . اللهم صل وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم الى يوم الدين

أما بعد : فان الله تعالى بعث رسله مبشرين ومنذرين ، وجعلهم الهداة والأئمة الى كل علم صحيح نافع ودين صحيح ، والى كل صلاح وخير . وخص محمدا ﷺ بأن جعله خاتمهم وإمامهم ، وأنزل عليه الكتاب والحكمة : فيهما الهدى والحق والنور ، وفيهما العلوم النافعة والحقائق الصادقة ، والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والآداب العالية ، إليهما ينتهى كل علم وحق وكمال . وقد وضح الله ورسوله فيهما المسائل والدلائل والحقائق اليقينية والبراهين القطعية ، فمن تمسك بهما واهتدى بهما سعد فى الدنيا والآخرة ، ومن أعرض عنهما أو عارضهما ضل عن الهدى وشقى ونال الصفقة الخاسرة . وأعظم الناس انحرافا عنهما ملاحدة الفلاسفة وزنادقة الدهريين وهم أكبر أعداء الرسل فى كل زمان ومكان ، وهم شرار الخلق ، الدعاة الى الضلال والشقاء ، فانهم تصدوا لمحاربة الأديان كلها ، وزين لهم الشيطان علومهم التى فرحوا بها واحتقروا لأجلها ماجاءت به الرسل ، فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . وقد أصّلوا لباطلهم أصولا يقلد فيها بعضهم بعضا ، وهى فى غاية الفساد ، يكفى اللبيب مجرد تصورها عن إقامة البراهين على نقضها ، لكونها مناقضة للعقل والنقل ، ولكنهم زخرفوها وروجوها فانخدع بها أكثر الخلق .

أعظمها عندهم أصل خبيث منقول عن معلمهم الأول « أرسطو » اليونانى المعروف بالإلحاد والجحد لرب العالمين والكفر به وبكتبه ورسله .

وهذا الأصل الذى تفرع عنه ضلالهم أنه من أراد الشروع فى المعارف الإلهية فليمح من قلبه جميع العلوم والاعتقادات ، وليسع فى إزالتها من قلبه بحسب مقدوره ، وليشك فى الأشياء ثم ليكتف بعقله وخياله ورأيه . وكملوا هذا الأصل الخبيث بحصرهم للمعلومات بالمحسوسات ، وما سوى ما أدركوه بحواسهم نفوه . وهذا أصل أفسد عليهم علومهم وعقولهم وأديانهم . وقد بين الناس على اختلاف نحلهم بطلان أصولهم ، وأن أهلها قد خالفوا جميع الرسل وجميع العقلاء

ومن أبلغ من تكلم عليها وأبطلها شرعا وعقلا شيخ الإسلام ابن تيمية ، فانه بين عدة وجوه فى فسادها وبطلانها ، كل وجه منها كاف فى ابطالها ، فكيف إذا اجتمعت . فننقل كلامه عليها ثم نتمم ذلك بما ييسره الله .

قال رحمه الله فى نقض (التأسيس) لما ذكر عن هذا المعلم الملحد هذا الأصل الخبيث « والكلام على هذا من وجوه :

(أحـــدها)

أن هذا الكلام هو وما ذكر معه من الحجة أشبه بكلام أهل الجهل والضلال ، ومن لا يدرى مايخرج منه من المقال ، من كلام أهل العلم والعقل والبيان . وهو أشبه بكلام قصاص الجهال ، والمغالطين ، من كلام العلماء والمجادلين بالحق . وما أحسن ما قال الامام أحمد فى بشر المريسى : كان صاحب خطب ، ولم يكن صاحب حجج . بل هذا الكلام دون كلام أهل الخطب والحجج .

(الثانى)

أن يقال : ألم يكن فى آثار الأنبياء والمرسلين ما يستغنى به فى أعظم

المطالب واشرف المعارف ، عما يروون عن معلم المبدلة الصابئين الذين انتقلوا عن الحنيفية الثابتة بالعقل والدين وهو رأس هؤلاء الدهرية .

(الثالث)

أن جميع العقلاء الذين خبروا كلام أرسطو وذويه فى العلم الإلهى قد علموا انهم أقل الناس نصيبا فى معرفة العلم الإلهى وأكثر اضطراباً وضلالاً فان كلامه وكلام ذويه فى الحساب والعدد ونحوه من الرياضيات مثل كلام بقية الناس والغلط فى ذلك قليل نادر وكلامهم فى الطبيعيات دون ذلك وكلامهم فى ذلك غالبه حق وفيه باطل ، وأما كلامهم فى الإلهيات ففى غاية الاضطراب ومع قلته كثير الضلال عظيم المشقة ، وهذا أمر يعرفه كل من له نظر صحيح فى العلوم الإلهية فلا يستدل بكلام هؤلاء فى العلم الإلهى وحالهم هذه الحال وقد اعترف اساطين الفلسفة بأن العلم الإلهى لا سبيل لهم الى العلم واليقين فيه وانما يؤخذ فيه بالأولى والأخلق والأحرى فيه ، فاذا كانوا معترفين بأنهم ليس عندهم علم ولا يقين فى العلم الالهى كيف يستدل بكلامهم فيه .

(الوجه الرابع)

ما معنى قوله فليستحدث لنفسه فطرة اخرى والفطرة هى الخلقة التى فطر الله عباده عليها اتريد ان تبدل خلقته وما فيها من قوى الإدراك والحركة فهذا غير مقدور للبشر فان الله فطر عباده عليها ، أم تريد ان يترك ما فطر عليه من المعارف والعلم ويستحدث لنفسه معارف تخالف ذلك وهذا الذى يصلح أن تريده ، فهذا أمر بتبديل فطرة الله التى فطر عباده عليها وهى طريقة المبتدعين المبدلة لفطرة الله وشرعته كما قال ﷺ : كل مولود يولد على الفطرة الحديث فاهل الكتاب المنزل بدلوا وحرفوا من كتاب الله ما بدلوه وحرفوه ، وهم مع الصابئة والمشركين القائمين بالنظر العقلى بدلوا من فطرة الله التى فطر العباد عليها وغيروا منها ما غيروا ، ولهذا قيل : ان أرسطو هذا بدل طريقة

الصابئة الذين كانوا قبله مؤمنين بالله واليوم الآخر الذين أثنى عليهم القرآن . والله سبحانه خلق عباده على الفطرة التى فطرهم عليها ، وبعث اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ، فصلاح العباد وقوامهم بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة . وهؤلاء بدلوا وغيروا فطرة الله وشرعته ـ خلقه وأمره ـ وأفسدوا اعتقادات الناس وإرادتهم ـ إدراكهم وحركاتهم ، قولهم وعملهم ـ من هذا وهـذا ، كما بدل بنو إسرائيل القول الذى أمروا به ، والعمل الذى أمروا به » . قال :

(الوجه الخامس)

أن الرسول إذا أخبرنا بشيء من صفات الله وجب علينا التصديق به وإن لم نعلم ثبوته بعقولنا ، ومن لم يقرّ بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذين قال الله فيهم : ﴿ قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ومن سلك هذا السبيل فهو فى الحقيقة غير مؤمن بالرسول . ولا متلق عنه الأخبار بشأن الربوبية ، ولا فرق عنده أن يخبر الرسول بشيء من ذلك أو لم يخبر به ، فان ما أخبر به إذا لم يعلمه بعقله لا يصدق به . انتهى كلامه رحمه الله

(الوجه السادس)

أن يقال : هذه الوصية مخالفة لما بعث الله به رسله وأنزل كتبه ، فانه بعث رسله مذكرين للعباد ما فطروا عليه من الإقرار بوحدانية الله ووجوب شكر نعمه وافتراض الحب الكامل والتعظيم التام لله المتفضل بالنعم الظاهرة والباطنة ، ومذكرين لهم بالأمر بما فطرت العقول على استحسانه ، كالصدق والبر والأحسان والأخلاق الجميلة ، وبالنهى عما فطرت العقول على استقباحه من الكذب والظلم والعدوان وجميع الأخلاق الرذيلة ، فكيف يؤمر الناس أن يمحوا من قلوبهم وفطرهم هذه الأمور ؟ وهل هذا إلا نهى عن جميع

سواد السعادة والفلاح والصلاح ، وامر بكل منكر وفحشاء وسوء وشر وفساد ؟ وفى هذا من تقويض دعائم الخير والصلاح ، والاستبدال بها أصول الشر والفساد والفوضى فى العلوم والعقائد والأخلاق ، مالا منتهى لشره وضرره

(الوجه السابع)

أن يقال هذه الوصية تتضمن محو العلوم الصحيحة ، والمعارف النافعة ، والايمان الصحيح ، والاستبدال عن ذلك بأنواع الجهالات والضلالات والغى ، ورفض الإيمان بالكلية . فان الانسان فى الأصل خلق ظلوما جهولا : ليس فيه هدى ، ولاعلم صحيح ، ولا برهان ويقين فى المطالب العالية المقصودة ، إلا من جهة الطرق التى بعث الله بها رسله وأنزل بها كتبه . ولهذا كانت النبوة والرسالة يضطر اليها المكلفون أعظم من ضرورتهم الى الطعام والشراب وما به قوام حياتهم المادية . فالعلم والهدى الإجمالى والتفصيلى هو هدى الله ، فلا يليق برحمة الله وحكمته وحمده أن يترك العباد مهملين سدى بلا رسالة وتعريف لهم ما يصلحهم حالاً ومآلا ، فأرسل الرسل وأنزل الكتب حكمة منه ورحمة ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فجميع الهدى والعلوم النافعة الموجودة فى الأرض ، والمعارف النافعة ، والإيمان الصحيح ، وتوابع ذلك من آثار النبوة والرسالة ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ فمن تمسك بوصية هذا الملحد الضال فقد أمر بمحو ماجاءت به الكتب ، وأرسلت به الرسل ، وأن يستبدل بذلك وساوس النفوس ووحى الشيطان ، فهذه الوصية الباطلة مقصودها الأعظم جحد ما جاءت به الرسل ، وأهلها أحق الناس بالدخول تحت قوله تعالى : ﴿ الذين كذبوا

بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا ، فسوف يعلمون ، إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل ﴾ الآية

(الوجه الثامن)

أن يقال : هذا الكلام باطل شرعاً وعقلا . أما الشرع فجميع الكتب المنزلة من السماء وجميع الرسل جاءت بتقرير ما وضع الله فى فطر الخلق من الاعتراف بوحدانية الله وكماله المتنوع وصدقه وصدق رسله وتقرير الحق والحقائق النافعة فى القلوب اعتقاداً وتخلقا وتصديقا ودعوة اليها وهداية لها من جميع الوجوه . ومن المعلوم أن هذه الوصية الباطلة منافية لذلك غاية المنافاة ، مادة للجهالات البسيطة والمركبة وأنوع الضلالات ، وداعية إلى الشقاء فى الدنيا والآخرة . ودلالة الشرائع على هذا الأمر أعظم وأوضح من أن تفصل ، بل هذا روح الشرائع السماوية والشرائع النبوية .

وأما العقل فان أهل العقول الصحيحة متفقون على أن أفضل المغانم والمكاسب ما كسبته القلوب وحصلته من العلوم الصحيحة والمعارف النافعة والايمان الصادق والأخلاق العالية التى من اتصف بها صار من علية الخلق وأكملهم وأرفعهم درجة ومقاما ، فمن أوصى بترك ذلك ومحوه من القلوب والحث على الشك والتشكيك فقد جاء لأهل العقول بما لا يعرفونه ، بل ينكرونه أشد الإنكار ، ويرونه من فظائع المنكرات ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ وماذا بعد العقائد الصحيحة إلا العقائد الباطلة ؟ وماذا بعد الأخلاق الفاضلة إلا الأخلاق الرذيلة السافلة ؟ وماذا بعد الرشد إلا الغى والفساد ؟

(الوجه التاسع)

أن يقال : هذا الأصل الخبيث يعود الى تسلسل محو ما يقع فى القلوب من كل علم صحيح وفاسد ، ومن كل معرفة حاصلة فى القلب ، فهو أعظم مِعْوَلٍ لهدم العلوم كلها . لأن لازم ذلك يوجب أن لا يثبت فى القلوب

شيء من العلوم الصحيحة ، بل لا تزال الشكوك والمكابرات تنفى ما يقع فى القلوب حتى تنحل العلوم وتنحل الأخلاق ، ويتدرج بذلك الى مذهب الإباحية والانطلاق فى الفوضى وأغراض النفوس الخبيثة الضارة ، ولا يبقى دون ذلك مانع علمى ولا مانع خلق . وهذا أعظم معول للشيوعية المفسدة للدين والدنيا ، وبهذه الطريقة فشا الإلحاد

(الوجه العاشر)

أن يقال على وجه التنزل : أيما اولى ؟ محو ما يقع فى القلوب وما اتصفت به من الاعتقادات الصحيحة الناشئة عما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ، ثم بعد ذلك يوجهه صاحبه بزعمه الى طلب الحقائق من غير أساس صحيح يبنى عليه ولا معارف نافعة يعتمد عليها ؟ وقد علم ما يرد على القلوب الفارغة الساذجة الخالية من كل شيء من أنواع الوساوس والخيالات الفاسدة والضلالات المتنوعة ، وأنها عند انطلاقها من الحق الصحيح اعتقاداً وتخلقا تأتى بالغرائب المزعجة والخيالات المضحكة ، أى هذه الحالة التى لا يرتضيها من له مسكة من عقل ، وحالة قلب ملآن من العلوم الصحيحة والمعارف النافعة والإيمان الصادق القوى المستمد من مَعين الرسالة ومن هدى الله الذى هدى به الخلق ، وفيه من الفرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال ما يميز به الحقائق إذا وجهه صاحبه الى طلب الحقائق والحق من أبوابها واستخراج المعارف من طرقها ، فهذا القلب السليم عنده من اليقين والنور ما يهتدى به إلى المطالب العالية ، فمن سوّى بين الحالتين والقلبين فليبك على ذهاب عقله بعد ذهاب دينه ، فالعلوم التى لها أساس قوى تعتمد عليه ولها براهين قطعية تستمد منها وتهتدى بها وصاحبها عنده من الأصول ما يفرق به بين الحق والباطل : هى التى يعتبرها أولو الألباب ، وينافسون فى تحصيلها ، ويرون إدراكها أجل نعمة أنعم الله بها عليهم . وهؤلاء الملحدون يوصون بتركها ومحوها من القلوب حتى يلتج

الباطل فيها من غير معارض يعارضه من العلم واليقين والإيمـان . فالعلوم والمعارف والأدلة والبراهين محال أن تـكون صحيحة نافعة حتى تستنير بنور الوحى وبرهان الحقيقة ، وتبنى علومها واعمالها على الإيمـان

(الوجه الحادى عشر)

أن هؤلاء يعاندون الله ورسوله أعظم معاندة ، فالله يقول : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسمـٰعيل واسحـٰق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ وفى الصحيح أنه ﷺ قال لمن قال له : قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » أى على الإيمـان . وهؤلاء الملحدون يقولون : امحوا هذه الأصول والعقائد ـ التى لا أصح منها ولا أنفع ولا يسعد العبد غيرها ـ من قلوبكم وشـكوا لتستحدثوا علوما وعقائد جديدة تجيش بها القلوب المنحرفة والآراء الفاسدة والضمائر التى أعرضت عن الحق وعارضته وتوجهت الى الباطل ، وهذا لا ريب أنه مشاقة ومحاربة لله ورسله .

(الوجه الثانى عشر)

أن محو العلوم الصحيحة والعقائد الحقة من القلوب وطلب الشك فيها محال غير ممـكن ، ومن حاول ذلك فهو مكابر ، فالحقائق الصحيحة المبنية على البراهين الحقة الواضحة لا يمـكن إزالتها من القلوب بوجه ، لأن الحق إذا تمت معرفته احتل القلوب وثبت فيها واستقر وصارت له السيطرة على كل باطل ، وزهق الباطل عند مقابلته . ولهذا قال تعالى عن فرعون وقومه : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ وقال : ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾ وقال عن اليهود : ﴿ الذين آتيناهم

الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ وقال عن كفار المشركين : ﴿ فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ . فهؤلاء الملحدون إنما غرضهم الوحيد صد الناس عما جاءت به الرسل ، ومقاومة ذلك بكل طريق ، فرأوا هذا طريقا راج على الأغمار وضعفاء البصائر ، ﴿ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ اما اولو البصائر والألباب فانهم يسعون لأزالة ما وقع ويقع فى القلوب من الشبهات والشهوات المعارضة للحق فان الشبهات والشهوات الواردة على القلوب تضعف علمها ويقينها وايمانها . ودواء ذلك أن يقابل بالعلم الصحيح والبراهين الصادقة فان الشكوك لا ثبوت لها عند ذلك قال تعالى ﴿ فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾ وكذلك ازالة ما يقع فى القلوب من الشهوات والأغراض الفاسدة التى يقدمها صاحبها على الحق والتعصب للمقالات بغير مستند صحيح فدواء ذلك بتوجيه القلب لقصد الحق الصرف والإخلاص لله وقوة الرغبة فيما عند الله وتقديمه على هوى النفوس ، فهذا هو المطلب الصحيح لكل موفق : ان يكون فطنا فى ادراك الحق وفى نفى الشبهات المنافية له وان يكون حسن القصد فى ترجيح ما يرجحه الدليل الصحيح من المقالات .

(الوجه الثالث عشر)

أن المقصود الأعظم من تأصيل هذا الأصل الخبيث الكفر بما جاءت به الرسل والانحلال عنه وإلا فاهله من اكذب الناس فانهم متمسكون غاية التمسك بما عليه ائمتهم الملحدون ، واقوالهم وعقائدهم مقدمة عندهم على ما جاءت به الرسل ويتعصبون لها غاية التعصب ، فلو كانوا صادقين محقين لوجب عليهم أن يمحوا من قلوبهم اقوال ائمتهم وعقائدهم التى ما زالوا متمسكين بها ومقلدين لها تقليداً اعمى ، فالغرض من كلامهم معروف وهو قصدهم الانحلال من الدين الصحيح والتمسك باقوال هؤلاء الضالين

(الوجه الرابع عشر)

قال الشيخ : ومن المعلوم ان الله لا يحب الجهل ولا الشك ولا الحيرة ولا الضلال ، وانما يحب الدين والعلم واليقين . وقد ذم الحيرة بقوله ﴿ قل اندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على اعقابنا بعد اذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى قل : ان هدى الله هو الهدى ﴾ وقد امرنا ان نستهديه الصراط المستقيم المتضمن للعلم بالحق والعمل به والقرآن هو الشفاء والهدى والنور ، والشك والحيرة ليست محمودة باتفاق المسلمين وغاية ما يكون ان من لم يكن عنده علم بالشىء فالواجب عليه أن يسكت ويطلب العلم من طرقه ، وهؤلاء الملحدون الشاكون المشككون الذين يأمرون الناس بمحو الحق الذى فى القلوب لتتوجه القلوب الى غيره مخالفون للكتاب والسنة ولإجماع العقلاء المعتبرين متابعون لأئمتهم الضالين . انتهى

(الوجه الخامس عشر)

أنه لو فرض وقدر ان الأنسان يمحو من قلبه كل عقيدة ويصير القلب خالياً من الحق والباطل ، ثم يزن بعقله المستقيم العقائد الصحيحة النافعة التى جاءت بها الرسل بما يضادها من العقائد الأخر ويزنها بحق وعدل وانصاف وفهم صحيح فانه يظهر له الفرق العظيم ويتضح له ان من سوّى بين ما جاءت به الرسل وبين غيره كالمسوى بين الليل والنهار والضياء والظلمة ، فكيف بمن فضل الالحاد على دين رب العباد ، فان الحق بطبيعته وبراهينه يمحق الباطل ولا يبقى له معه قرار .

(الوجه السادس عشر)

أن الأمور اليقينية والحقائق الصادقة يستحيل ان تقدح فيها الشبهات

والتشكيكات بوجه من الوجوه ، وقد علم بالأدلة والبراهين المتنوعة نقلا وعقلا وفطرة أن ما جاءت به الرسل هو الحق واليقين والدين الحق ، وبراهين ذلك لا تحصى كثرة وقوة ووضوحا ، وقد صنفت الكتب الكبار والصغار من أصناف الطوائف فى تحقيق صدق الرسل وصحة ما جاءوا به وأنه الحق والهدى ، وأن كل ما نافاه وخالفه إذا قيس به وقرن معه اضمحل وبطل ، ولم يكن له اليه نسبة بوجه من الوجوه . فمتى علم المنصف ذلك عرف أنه ليس بعد الحق إلا الضلال والمحال ، وأن تأصيل هؤلاء الملحدين هذا الأصل الفاسد من أكبر ما يدل على فساد أديانهم ، وسفاهة عقولهم ، وسوء مقاصدهم .

(الوجه السابع عشر)

أن العلوم النافعة التى اتفق عليها أتباع الرسل وأهل الهدى مدارها على أمرين :

أحدهما أن يعرف ما أخبرت به الكتب السماوية والرسل عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر وسائر الغيوب ، وما أخبرت به وحكمت به من الأحكام التى يتعبد المكلفون بها ويتعاملون ، ويعتقد ذلك ويعمل به .

الثانى معرفة براهين ذلك العقلية والسمعية والنظرية . والوقوف على أسرارها وحكمها . فهذه العلوم النافعة التى خلق الله لها الخلق وأرسلت بها الرسل وتتوقف السعادة والفوز والفلاح عليها ، فالسعى فى إزالتها من القلوب أعظم معاندة ومشاقة ومحاربة لله ورسله ، وإنما المطلوب الأعلى حصولها فى القلوب وثبوتها . فتباً لطائفة زائغة قدمت مقالات الملاحدة على كلام الله ورسوله .

(الوجه الثامن عشر)

أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم جاءوا بمحق ما يقع فى القلوب

مما ينافى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتوابع ذلك ، وإزالة كل شبهة تعرض للقلوب تقدح فى هذا الأصل أو تخل به بالبراهين القاطعة الواضحة ، ليكون الإيمان صحيحاً والقلب سليما من الشبهات والشكوك والإرادات الفاسدة ، والقرآن والسنة مملوآن من ذلك . وهؤلاء الملحدون يريدون نقيض ذلك ، فهم أئمة الكفر والجحود حادّوا الله ورسله أعظم محادة .

(الوجه التاسع عشر)

أن من أعظم الأصول التى جاءت بها جميع الرسل ، خصوصا خاتمهم وإمامهم محمد ﷺ الإيمان بالقضاء والقدر ، مع الحث على فعل جميع الأسباب النافعة فى الدين والدنيا . والكتاب والسنة مملوآن من ذلك . وان جميع الحوادث مربوطة بقضاء الله وقدره ، ونواصى العباد بيده ، وأنه لاحول للعباد ولا قوة لهم إلا بالله ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا يأتى بالحسنات إلا الله ، ولا يدفع السيئات إلا هو ، وأن جميع النعم الباطنة والظاهرة كلها من الله . فهذا الأصل الكبير قرره الكتاب والسنة فى مواضع كثيرة ، وهو أصل توحيد الربوبية ، وقصد تقريره فى القلوب ، واعتقاده الكامل المثمر لكل خير . وهؤلاء الملحدون يريدون ويحاولون من الخلق أن يجحدوا قضاء الله وقدره ، ويعتقدوا أنه لاحاجة إلى الاستعانة برب العالمين رأسا ، لأنهم جحدوه وعطلوا أفعاله بالكلية ، واعتقدوا أن الأفعال كلها للطبيعة . وكفى بقول جهلا وضلالاً أن يصل الى هذا الحد الفظيع .

(الوجه العشرون)

أن هؤلاء الملحدين حصروا العلوم المدركة فى دائرة ضيقة ، فما أدركوه بحواسهم وتجاربهم أثبتوه ، وما لم يدركوه بذلك نفوه وأنكروه . فانكروا

من أجل ذلك علوم الغيب كلها ، وجحدوا ربوبية الله وأفعاله ، وعطلوه من صفاته وأفعاله ، إذ لم يدخل ذلك تحت مداركهم القاصرة . وهذا باطل شرعا وعقلا :

أما الشرع فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل تبطل قولهم وحصرهم العلوم بمدركات الحس الظاهرة ونفيهم لما عداها ، وتثبت بالبراهين اليقينية من علوم الغيب ومن العلوم التى لا تدرك إلا بالوحى من الحقائق النافعة الصحيحة والمعارف الصادقة مالا نسبة لعلومهم كلها اليها من أولها الى آخرها .

قال الشيخ : وهم يعترفون أن علوم الأنبياء لا يمكن أن توزن بميزان صناعتهم ، فأكثر الحقائق النافعة يعترفون أنه لا سبيل الى وزنه بها ، فهى يوزن بها المتاع الخسيس ، دون الحقائق النافعة والأمر النفيس الذى ليس للنفوس عنه عوض ، وليس سعادتها إلا فيه . فهم لم يزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولم يستدلوا بالآيات البينات التى هى العلوم الحقيقية والحكمة اليقينية التى فاز بالسعادة عالمها وخاب بالشقاوة جاهلها . وأهل المنطق متفقون على أنه لا يفيد إلا أمورا كلية مقدرة فى الذهن لا فى الخارج ، والعلوم الموروثة عن الأنبياء أجل وأعظم من أن يكون لها التفات أو حاجة الى علمهم ، بل إدخال علمهم فى العلوم الصحيحة يطوّل العبارة ويبعد الإشارة ويجعل القريب من العلم بعيدا ، واليسير منه عسيرا ، ولا يفيد إلا كثرة الكلام والتشقيق ، مع قلة العلم والتحقيق . والأمور الموجودة المحققة تعلم بالحسّ الباطن والظاهر ، وتعلم بالقياس التمثيلى ، وتعلم بالقياس الذى ليس فيه قضية كلية ولا شمول ولا عموم . انتهى .

وأما العقل فجميع العقلاء المعتبرين يثبتون للعلوم مدارك غير مدارك الحس ، فان مدارك العلوم : الحس ، والعقل ، والأخبار الصادقة . فالأخبار الصادقة أعلاها وأصدقها وأحقها بالحق خبر الله وخبر رسله ، وفى ذلك تبيان لكل شىء ، وهدى للخلائق ، وتوضيح للحقائق ، وتنبيه للعقول على

توجيهها لكل علم نافع . ويلزم على قول هؤلاء الملحدين إبطال ذلك كله حتى يدركوه بحواسهم ، وهذا ميراث محقق من مكذبى الرسل الذين ردوا ما جاءت به الرسل بمجرد استبعادات ، وأنكروا مالم يحيطوا به علما ، وهم لا يزالون ينقضون دليلهم الذى تمسكوا به فيثبتون تجارب ونظريات ثم تحصل تجارب ونظريات أخرى لهم ولقومهم تنفى ما أثبتوه وتثبت ما نفوه ، ولا يزالون هكذا فى أمر مريج حين كذبوا بالحق .

وقد ذكر الله الأسباب التى دعت أمثال هؤلاء الى تكذيب الحق ، وهو الجهل بما لم يحيطوا بعلمه ، والتبجح بما عندهم من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ، والكبر الذى فى قلوبهم ما هم ببالغيه ، وتقليد أئمتهم الضالين . فضعف التمييز ، وتقليد أئمة الملاحدة ، والإعراض عما جاءت به الرسل من أكبر الأسباب التى مكنت هؤلاء من لزوم الباطل .

(الوجه الحادى والعشرون)

أن هؤلاء الماديين الملحدين لما سدوا على أنفسهم بهذا الأصل الخبيث أكمل الطرق الموصلة للعلوم النافعة وأصحها وأهداها وأقومها وأوضحها ، وهى العلوم التى جاءت بها الرسل ونزلت بها الكتب السماوية وفطر الله عليها عقول العباد إلا من فسدت فطرته بالعقائد الفاسدة ، فسدّ هؤلاء هذا الباب النافع العظيم على أنفسهم وأتباعهم ، وحصروا علومهم ومعارفهم فى الأسباب المادية فقط ، وتوسعوا فيها ومهروا واخترعوا وبلغوا حيث انتهت اليه معارفهم وأفهامهم ، وانقطعت بذلك صلتهم بالله ورسله وكتبه وبعلوم الرسل وبالهداية الصحيحة المثمرة لصلاح الظاهر والباطن وسعادة الدنيا والآخرة ، فوقعوا فى أمر مريج ، وتخبطت نظرياتهم . وكلما اتفقوا أو أكثرهم على نظرية عن انتظام الأسباب بعضها ببعض وارتباطها الوثيق حاروا فى المواد الأولية وفى سبب الأسباب ، فينقضون ما اتفقوا عليه ، ويبطلون ما كانوا أسسوه ، ولا يزالون كذلك ماداموا لم ينفذوا من

الأسباب الى مسببها ، ومن المخلوقات الى خالقها . فما داموا كذلك فانهم لا يستطيعون الاستقرار على رأى جامع لجماعتهم ومسعد لهم فى الدنيا والآخرة . ونهاية ما يصلون اليه ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ نسوا الله فنسيهم وتركهم فى طغيانهم وغيهم وضلالهم يعمهون ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾

(الوجه الثانى والعشرون)

أنهم حين أصَّلوا هذا الأصل الباطل الذى جعلوه ميزان العلوم كلها تجرأوا جراءة فظيعة على تحليل حياة الرسل بناء على هذا الأصل وتجرهموا بعقولهم الفاسدة وعلومهم القاصرة الى القدح بالرسل وإسقاط منزلتهم من قلوب السمّاعين لهم المستجيبين لدعوتهم حتى أبطلوا بذلك الوحى والرسالة والمعاد وأنكروا الرب تصريحا وتعريضا وتدرجوا بذلك الى القدح فى جميع الأديان ، ولم يجعلوا للرسل ميزة على غيرهم ، بل فضلوا طواغيتهم وفلاسفتهم عليهم . فأصلٌ هذه آثاره الخبيثة ، وهذه ثمراته السّمية المنتنة الحنظلية ، كيف يليق بمن له أدنى معقول أن يصغى اليه أو يبنى عليه شيئا من علومه ومعارفه ، فانه مفسد للأديان والعلوم ، ومخبط للأذهان ، فهو اعظم أصول الغى والضلال . والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

(الوجه الثالث والعشرون)

أن العلوم المدرَكة بالحس إذا نسبت الى علوم الرسل - كالعلوم المتعلقة بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وأحوال الآخرة والجزاء على الخير والشر وأمور الغيب والإخبار بما كان وما يكون وما يسعد النفوس ويشقيها — : كانت كقطرة فى بحر لجى . فأمور الغيب التى تتوقف على إخبار الرسل ووحى الله وهدايته العامة والخاصة أبطلها هؤلاء الملاحدة ، إذ ضيقوا

دائرة المعلومات جدا فى مدركات حواسهم ، فلهذا حاروا واضطربوا ولم يستقر لهم قرار على أقوال تتفق عليها آراؤهم ، لأنهم أنكروا العلم الحقيق النافع الذى يزكى النفوس ويسعدها ويرقيها فى مدارج الكمال .

ومن المنكر والزور تخصيصهم علومهم القاصرة باسم العلم ، فحيث أطلقوا « العلم » أرادوا به علوم الفلسفة وما نتج عنها ، ونفوا العلم عما سواها ، وهذا من باب المكابرات وقلب الحقائق ، وإلا فالعلم الحقيق الذى أثنى الله عليه فى كتابه علوم الرسل وهداية الوحى المنزل من عند العليم الخبير ، وما سواها فإما علوم ضارّة ، وإما قليلة النفع ، وإما نافعة فى أمور الدنيا دون أمور الدين . وقد نفخت روح الكبر فى قلوب أصحابها واحتقروا لأجلها العلوم النافعة فى الدين والدنيا ، فما أضرها وأضر ثمراتها ، ونعوذ بالله من علم لا ينفع

(الوجه الرابع والعشرون)

أنه عن هذا الأصل الخبيث الباطل حكموا حكما فظيعا باطلا ، وهو أن الرجوع الى الماضى رجعية فاسدة ، وأنه يجب إهدار كل قديم . وهجنوا بعباراتهم المتنوعة كل قديم ليتصلوا بذلك للقدح فيما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ، وقالوا إن البشر لم يبلغوا سن الرشد إلا فى هذا الوقت الذى طغت فيه علوم المادة وانحلت الأخلاق وشاعت الإباحية والفوضوية الضارّة المهلكة ، حتى تفاقم الشر وعم الطغيان واضمحل الخير ، وهذا من أعجب العجائب ، كيف يكون الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ـ وخصوصا سيدهم وإمامهم محمد ﷺ وعليهم أجمعين ـ ومن اهتدى بهداهم من أئمة الهدى ومصابيح الدجا وخواص الخلق لم يبلغوا سن الرشد وهم الذين كانوا على الهدى المطلق وبهم هدى الله البشر وأرشدهم الى كل علم نافع صحيح وعمل صالح وخير ورشد وصلاح ، كيف يكونون هم وأتباعهم ومن سلك طريقهم من الهادين المهديين المهتدين لم يبلغوا سن الرشد ، وهؤلاء الزنادقة الملاحدة

هم الذين بلغوا سن الرشد ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم . ويكفى تصور هذا القول وتصور أحكامه ولوازمه معرفة ببطلانه ، فان أكبر الدلائل على رشد الرشيد وسفه السفيه تصرفاته ونتائج أعماله وثمراتها .

انظر الى أحوال الرسل وأتباعهم كيف هدوا الى كل عقيدة صالحة نافعة والى كل خلق جميل وعمل صالح ، وكيف نهوا وحذروا عما يضاد ذلك ويناقضه ، وكيف نشروا الصلاح والرحمة والحكمة على البلاد والعباد ، وكيف تم بارشادهم الصلاح الذى ليس بعده صلاح والسعادة العاجلة والآجلة والفلاح ، فهل تجد علماً نافعا أو خلقا فاضلا أو خيرا ناميا أو شراً مدفوعا أو ضرراً مرفوعا إلا بسبب الرسل وإرشادهم وهدايتهم وسعيهم .

أما هؤلاء الملحدون الماديون فعلى العكس من ذلك فان آثار علومهم وأعمالهم هبطت بالبشر والإنسانية الى أسفل سافلين ، وشقوا فى دنياهم كما شقوا فى دينهم وعقولهم . وهذه المخترعات التى تكبروا بها وطغوا وبغوا هل توسلوا بها الى الخير والحياة الطيبة والرحمة ، أم صارت أكبر نكبة على البشر وأعظم مصيبة عليهم وعلى غيرهم ؟ فأين الرشد وأين العقول وأين الأحلام الصحيحة من قوم هذا وصفهم ووصف أعمالهم المطابق لأحوالهم الذى لا يمكن أحدا إنكاره ؟ ولكن الكبر والأشر والنظر القاصر والبهرجة روجت باطلهم فجرفت جمهور البشر الذين لا بصيرة لهم ولا عقول صحيحة ، وإنما معهم التقليد الأعمى والزهو والغرور . فيامن عافاه الله من هذه البلية ومن َّ عليه بهداية الرسل ، احمد الله حمداً كثيرا ، واشكره شكرا متتابعا ، فان الله أنعم عليك بنعم لا يقادر قدرها ولا يبلغ كنهها ، وسل ربك الثبات على الإيمان الصحيح المؤيد بالعقل الصريح والفطرة السليمة والطرائق المستقيمة

(الوجه الخامس العشرون)

أنه لا عاصم من الفوضوية وانطلاق النفوس فى أغراضها وشهواتها السبعية البهيمية إلا الاعتصام بالحق الذى جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، من توحيد الله وعبادته والحث على الأخلاق الجميلة والتحذير من ضدها وهؤلاء الملحدون لما أعرضوا وعارضوا الحق الذى جاءت به الرسل وقاوموه أشد المقاومة بخيلهم ورجلهم وشياطينهم وفتحوا باب الاستغناء بما تقذف به القلوب من الأفكار التابعة للشهوات النفسية ، اندفعت أفكارهم وإراداتهم وشهواتهم الى شهوات الغى وإعطاء النفوس مناها ، ولم تقف عند حد فاستباحت كل قول وفعل محرم ، ووقعوا فى الإباحية المحضة ، وصارت الحيوانات على نقصها أحسن حالا منهم . ثم مع هذا الشر العريض والفساد الكثير زين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، فجعلوا يدعون الى هذه الأخلاق السافلة ﴿ ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ انظروا الى أعمالهم إن كنتم مرتابين ، وتأملوا آثارهم إن كنتم تعقلون . كم هدموا من محاسن وفضائل ، وكم أقاموا من شرور ورذائل . ولا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ، ولا تغترر بما أعطيه هؤلاء الملحدون من إدراكات وقوة ذكاء وفطنة وأعمال ، فان الذكاء وتوابعه اذا لم يصرف فيما خلق له العبد ، واذا أنكر صاحبه أوضح الأشياء وأحقها ، كان ضررا كبيرا على صاحبه مآله الهلاك كما قال تعالى عن أمثال هؤلاء : ﴿ وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ فذكر أن جحودهم لآياته أوجب لهم أن لاينتفعوا بما أوتوا من هذه الأدراكات ، وصارت النعم جالبة للنقم . وقال تعالى : ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ فهم عظموا علومهم التى تبجحوا بها وتكبروا وقاوموا

الرسل وسخروا بما جاءتهم به الرسل فانحرفت علومهم الى الباطل ونزل بهم ما كانوا به يستهزئون

(الوجه السادس والعشرون)

قال الشيخ : ما أخبرتْ به الرسل من الغيب فهى : أمور موجودة ثابتة أكمل وأعظم مما نشهده نحن فى هذه الدار ، وتلك أمور محسوسة تشاهد وتحس ، ولكن بعد الموت وفى الدار الآخرة ، ويمكن أن يشهدها فى هذه الدار من يختصه الله بذلك . ليست عقلية قائمة بالعقل كما تقوّله الفلاسفة ، ولهذا كان الفرق بينها وبين الحسيات التى نشهدها أن تلك غيب وهذه شهادة ، وكون الشيء غائبا أو شاهدا أمر إضافى بالنسبة الينا ، فاذا غاب عنا كان غيباً واذا شهدناه كان شهادة . وليس هو فرقا يعود الى أن ذاته تعقل ولا تشهد ولا تحس ، بل كل ما يعقل ولا يمكن أن يحس بحال فانما يكون فى الذهن ، والملائكة يمكن أن يشهدوا ويروا ، والرب تعالى يمكن رؤيته بالأبصار ، والمؤمنون يرونه فى القيامة وفى الجنة كما تواترت بذلك النصوص . انتهى .

وهذا يبطل أصل الملاحدة الذين يحصرون المعلومات بمدركاتهم الخاصة القاصرة ، فانه ثبت بالبراهين القوية صدق الأنبياء عليهم السلام ، وقد تواترت عنهم هذه الأمور وحصل اليقين التام لجميع من صدقهم ، فانكار الملحدين لذلك إبطال لأعظم المعلومات بأقوى البراهين وأصحها وأوضحها ، وذلك مكابرة منهم ومباهتة .

وقال الشيخ : واستدلال الملاحدة على إلحادهم بقوله تعالى : ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ـ وتحويلا ﴾ على أن العالم لا يتغير بل لا تزال الشمس تطلع وتغرب لأنها عادة الله ، فيقال لهم : انخراق العادات أمر معلوم بالحس والمشاهدة بالجملة ، وقد أخبر فى غير موضع أنه سبحانه لم يخلق العالم عبثا وباطلا بل لأجل الجزاء ، فكان هذا من سنته الجملية ، وهو جزاؤه الناس

بأعمالهم فى الدار الآخرة كما أخبر به من نصر أوليائه وعقوبة أعدائه ، فبعث الناس للجزاء هو من هذه السنة ، وهو لم يخبر بأن كل عادة لاتنتقض ، بل أخبر عن السنة التى هى عواقب أفعال العباد بإثابة أوليائه ونصرهم على الأعداء ، فهذه هى التى أخبر أنه لن يوجد لها تبديل ولا تحويل ، كما قال : ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ وذلك لأن العادة تتبع إرادة الفاعل . وإرادة الفاعل الحكيم هى إرادة حكيمة : فتسوى بين المتماثلات ، ولن يوجد لهذه السنة تبديل ولا تحويل ، وهو إكرام أهل ولايته وطاعته ، ونصر رسله والذين آمنوا على المكذبين . فهذه السنة تقتضيها حكمته سبحانه وتعالى فلا انتقاض لها ، بخلاف ما اقتضت حكمته تغييره فذاك تغييره من الحكمة أيضا ، ومن سننه التى لا يوجد لها تبديل ولا تحويل . لكن فى هذه الآيات رد على من يجعله يفعل بمجرد إرادة ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح ، فان هؤلاء ليس له عندهم سنة لا تتبدل ولا حكمة تقصد ، وهذا خلاف النصوص والعقول ، فان السنة تقتضى تماثل الآحاد وأن حكم الشىء حكم نظيره ، فيقتضى التسوية بين المتماثلات وهذا خلاف قولهم اه

(الوجه السابع والعشرون)

قال الشيخ : ما جاءت به الرسل صلوات الله عليهم لا يعرفه هؤلاء الفلاسفة وليسوا قريبين منه ، بل كفار اليهود والنصارى أعلم منهم بالأمور الإلهية ، لا فرق بين العلوم النقلية ولا العقلية الصحيحة التى جاءت بها الرسل ، فهذه العقليات الدينية الشرعية الإلهية هى التى لم يشموا رائحتها ، ولا فى علومهم ما يدل عليها . وأما ما اختصت الرسل بمعرفته وأخبرت به من الغيب فذاك أمر أعظم من أن يذكر ترجيحه على الفلسفة ـ فاذا كان أشرف العلوم لا سبيل للفلاسفة الى معرفتها بطريقهم كما قرر وتقرر واعترفوا به ، لزم أمران :

أحدهما : أنه لا حجة لهم على ما يكذّبون به مما ليس فى قياسهم دليل عليه .

الثانى : أن ما علموه خسيس بالنسبة الى ما جهلوه ، فكيف إذا علم أنه لا يفيد النجاة ولا السعادة . والرسول أخبر عن أمور معينة ، مثل نوح وخطابه لقومه وأحواله المعينة ، ومثل إبراهيم وأحواله المعينة ، ومثل موسى وعيسى وأحوالها المعينة ، وليس شىء من ذلك يمكن معرفته بقياسهم لا البرهانى ولا غيره ، فان أقيستهم لا تفيد إلا أمورا كلية ، وهذه أمور خاصة . وكذلك أخبر عما كان وسيكون بعده من الحوادث المعينة ، حتى أخبر عن التتر بما ثبت فى الصحيحين من غير وجه أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك صغار الأعين ذلف الأنوف حمر الخدود ينتعلون الشعر ، كأن وجوههم المجانّ المطرقة » فهل يتصور أن قياسهم وبرهانهم يدل على آدمى معين أو أمة معينة فضلا عن أن يوصف بهذه الصفات قبل ظهورهم بنحو سبعمائة سنة ؟

وكذلك إخباره بخروج النار التى خرجت سنة ٦٥٥ وسائر ما أخبر به من الأمور الماضية والمستقبلة والأمور الحاضرة مما يعلمون أنه يمتنع أن يعرف ذلك بالقياس البرهانى وغيره ، فان ذاك إنما يدل على أمر مطلق لا على شىء معين ، وليس مع الفلاسفة ما ينفى وجود ما يمكن أن يختص به بعض الناس بالباطن كالملائكة والجن ، ولا معهم ما ينفى تمثل الأرواح أجساما حتى ترى بالحس الظاهر وما أشبه ذلك ، فليس معهم فى نفى هذه الأمور الثابتة باخبار الأنبياء وبراهين أخر إلا الجهل المحض ، فقد كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ، مع أن عامة أساطين الفلاسفة يقرون بذلك ، وكذلك أئمة الأطباء . وطريق هؤلاء الملاحدة لا يفرق بين الحق والباطل بخلاف طريق الأنبياء . انتهى .

وقال فى سبب الحاد بعض الملحدين : من أضر الأمور على العبد أن يكون متميزا عن العامة ببعض العلوم الطبيعية أو غيرها ، فاذا جاءته العلوم

الدينية النافعة التي لم تدخل فى علمه نفاها فخسر دينه وصار علمه الجزئي لبعض المعلومات وبالاً عليه . وهكذا تجد من عرف نوعاً من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه فيبقى بجهله نافيا لما لا يعلمه ، وبنو آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما صدقوا به وأثبتوه . قال تعالى ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ وهذا لأن الغالب على الآدميين صحة الحس والعقل ، فاذا أثبتوا شيئا وصدقوا به كان حقا بخلاف ما نفوه ، فان غالبهم أو كثيرا منهم ينفون مالا يعلمون ويكذّبون بما لم يحيطوا به علما . ويتفرع على هذا الأصل الباطل : الجهل بالإلهيات وبما جاء به الرسل ، والجهل بالأمور الكلية المحيطة بالموجودات ، وبهذا ضل زنادقة الفلاسفة وغيرهم كما أنكروا الجن والملائكة وأمور الغيب ، اذ لم تدخل تحت علومهم القاصرة ، فجحدوها وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وجاءتهم الرسل بالبينات والبراهين ففرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . انتهى .

(الوجه الثامن والعشرون)

أن يقال لهؤلاء الملحدين المنكرين لأمور الغيب التي أخبر الله بها ورسوله : لم أنكرتموها ؟ فيجيبون بأنها لم تدخل تحت علومنا التي بنيناها على إدراكات الحواس والتجارب . فيقال لهم قدّروا أنها لم تدخل فى ذلك ، فان طرق العلوم اليقينية كثيرة وأكثرها لا تدخل تحت إدراكاتكم ، فان إدراكاتكم قاصرة حتى باعترافكم ، فانكم تعترفون أن مدركاتكم خاصة ببعض المواد الأرضية وأسبابها وعللها ، ومع ذلك لم تدركوها كلها باعترافكم وأعمالكم فانكم لا تزالون تبحثون وتعملون التجارب التي تنجح مرة وتخفق مرات ، فاذا كانت هذه حالكم فى الأسباب والمواد الأرضية التي يشترك بنو آدم فى إدراكها ويفترقون فى مقدار الادراك فكيف تنفون بقية العوالم عوالم السماوات وعوالم الغيب وما هو أعظم من ذلك من أوصاف

رب العزة وعظمته ، وأنتم لم يتصل شيء من علومكم بذلك ، فان هذا النفى باطل باجماع العقلاء ، وإنما هذا مكابرة . واذا قلتم وأنتم تقولون بلسان المقال ولسان الحال : إن أئمتكم ورؤساءكم قالوا ذلك وأنكروه ، فيقال : أولاً رؤساؤكم قد تضاربت أقوالهم وتناقضت مقالاتهم ولم يثبتوا على مقالة واحدة ، ولم يزالوا فى خبط واختلاط وإحداث نظريات ونقضها واتفاق وافتراق ، ولو قدر على وجه الفرض اتفاقهم على الانكار فكيف يؤخذ بأقوال من لم يعرف صدقهم بل عرف كذبهم وخطؤهم فى ذلك ولا يؤخذ بأقوال الرسل من أولهم الى آخرهم الذين ثبت صدقهم بالبراهين اليقينية والآيات القواطع ، وثبت علمهم الذى تتضاءل معه علوم جميع البشر ، ولم يصل أحد إلى العلم الصحيح والهداية إلا من جهتهم ، وهم متفقون على ذلك . والكتب السماوية المنزلة عليهم وأتباعهم الذين عرفت هدايتهم ودرايتهم وعرف أن الواحد من أئمة هؤلاء الهداة يقاوم الفلاسفة من أولهم الى آخرهم فقد اتفقت الرسل والأنبياء وأتباعهم وأدلة العقول الصحيحة والفطر السليمة التى لم تغيرها العقائد الفاسدة على الأيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وجميع ما يجب الإيمان به من الغيوب ، وهؤلاء الملحدون ليس معهم نقل ولا عقل صحيح ، إنما معهم ظنون كاذبة وآراء خاطئة ونظريات مضطربة وتقليد أعمى للضالين الحائرين ﴿ فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها وكأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم . ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾

(الوجه التاسع العشرون)

أن هؤلاء الملحدين كاذبون فى دعواهم إثبات كل ما دخل تحت حواسهم ، فانه قد تواترت آيات الرسل وشاهدها الخلق العظيم واعترفوا وخضعوا لها

وشاهدوا مافعله الله فى الأرض من نصر الرسل وأتباعهم ونجاتهم ، وإهلاك الأمم المكذبة . وهذه وقائع كثيرة لا يمكن إحصاؤها ، ولم يشتهر ويتواتر شيء كاشتهارها وتواترها ، ولم يعترف البشر بشيء من الأشياء أعظم من اعترافهم بها لأنهم شاهدوها رأى عين و نقلتها الأمم قرنا بعد قرن ، وهؤلاء يكابرون ويباهتون ويجحدون ما اعترفت به الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم ، فهم تابعون لأئمتهم الذين قال الله عنهم : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾

(الوجه الثلاثون)

أنك إذا تصورت قول هؤلاء الملحدين الماديين الذين زعموا أن الحوادث كلها من أولها الى آخرها : حوادث الطبيعة ، ومع ذلك هذه الطبيعة لا شعور لها بما يصدر منها من أفعال ، وإنما هى آلة محضة ، ومع ذلك تصدر عنها الأفعال العظيمة التى هى فى غاية الإبداع والاتقان ، وفى نهاية الحكمة والرحمة ، وفى غاية الارتباط الوثيق الذى استقامت به الأمور وصلحت الأحوال من دون مدبر لها ولا خالق ولا فاعل ، فمن تصور هذا القول حق تصوره عرف أنه قول يشبه أقوال المجانين الذين سلبت عقولهم ، وهذوا بما لا شعور لهم فيه ، وعرف كل عاقل بصير أن نفس مقالاتهم تدل أكبر دلالة على كذبهم وافترائهم فضلا عن دلالات البراهين النقلية والقواطع العقلية وما فطر الله عليه الخلق من الاعتراف بوحدانية الله وتفرده بكل كمال وأنه الفاعل لما يريد وأنه مبدع السموات والأرض ومودع فيها من بدائع حكمته وأسرار حمده وسعة عظمته ورحمته وعموم بره وفضله ، وأنه لا يخرج موجود ولا حادث عن قدرته ومشيئته ، وأن رسله صادقون فى كل ما أخبروا به وشرعوه ، والحمد لله على أكبر النعم وهو الاعتراف بالحق الذى جاءت به الرسل ، والعافية من هذا البلاء الذى هو أكبر المصائب على العبد وهو اتباع كل ملحد مارق من العقل والدين

(الوجه الحادى والثلاثون)

أن يقال لرؤساء الملحدين وأذكيائهم ـ فضلا عن عوامهم ومقلديهم ـ : أنتم لا تزالون فى علومكم التى افتخرتم بها . لا تزالون تحدثون نظريات تتفق عليها آراؤكم أو أكثرها وتقررونها وتعتقدونها وتجزمون بصدقها ثم مع تكرار أفكاركم وأنظاركم عليها تشكون فيها وربما تجزمون ببطلانها وتحدثون مايضادها من النظريات التى باتفاقكم أن النظرية تقبل التحليل والشك والقدح فيها وهى عرضة للاضمحلال ، وكم قد أبطلتم منها ما كنتم ترونه حقا ، وكم كذبتم ما كنتم به مصدقين ، فعلومكم العالية عندكم وهذه حالها ومآلها كيف يسوّغ من له أدنى معقول أن يجعلها معارضة لما جاءت به الرسل من الحقائق الصادقة التى اتفقت عليها الرسل ونزلت بها الكتب وأيقن بها الأئمة الفضلاء والهداة المهتدون .

(الوجه الثانى والعشرون)

قد تقرر عند جميع الأمم ـ سوى هذه الطائفة التى كابرت وباهتت ـ صدق الرسل بما كانوا عليه من الأخلاق العالية والأوصاف الرفيعة وبما جاءوا به من الدين الحق الذى أصلح الله به الدين والدنيا وهدى به العباد الى كل خير وصلاح وفلاح خاص وعام عاجل وآجل ، وأيدهم بالآيات البينات والبراهين القاطعات التى تواترت تواترا لم يقاربه شىء من المتواترات حتى تناقلتها الأمم والقرون وصارت فى مقدمة الحقائق وفى أعلى مراتب الصدق ، وخصوصا إمامهم وسيدهم محمد ﷺ فان جميع الخلق شهدوا بصدق ما جاء به واعترفوا به وخضعوا : أولياؤه وأعداؤه ، ولو لم يجىء إلا بهذا القرآن الذى تحدى الله به الأنس والجن : أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة واحدة لبلاغته العظيمة وأسلوبه الجميل الجليل وأحكامه التى هى أحسن الأحكام وإخباره عن الغيوب الماضية والمستقبلة المتعلقة

بالخلق والمتعلقة بالخالق ، فمن عرف شيئا من أحوال الرسل وصدقهم وأخبارهم وأحكامهم عَرَف أن من أنكر ما جاءت به الرسل قد كابروا المحسوسات وباهتوا المعقولات وعاندوا العلوم الصحيحة وردوا المعارف اليقينية وأنهم بلا شك معاندون للحق أو مقلدون للمعاندين تقليدا أعمى ، فهم كما قال الله عن أئمتهم : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبه المفسدين ﴾ ، فاذا لم يؤمنوا ويصدقوا بما جاءت به الرسل ﴿ فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ أما أولو الألباب فقد قال الله عنهم : ﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾

(الوجه الثالث والثلاثون)

أن يقال لهؤلاء الملاحدة : ما جاء به محمد ﷺ من الدين والشرع وحى من الله جاء على يد الرسولين جبريل ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، وهو مؤيد بشهادة الآيات والبراهين القاطعة والعقول تهتدى به وتسترشد الى جميع المطالب العالية فتشهد بكمال حسنه وتعترف بحاجتها وضرورتها العظيمة الى إرشاده وتستنير به وتعرف أنه لا سبيل لها الى الوصول الى تفاصيل ما أخبر به من الغيوب المفصلة وأنه ليس فى علومها ما يدل على ذلك ، فسلمت لما جاء به الوحى والشرع ، ولم تعبأ بعقول بنيت على الشبه والخيالات ، فانها لو جمعت حكم جميع الأمم ونسبت اليها لم يكن لها اليها نسبة ، وهذه الشريعة متضمنة لأعلى المطالب بأقرب الطرق وأتم البيان ، وهى متكفلة بتعريف الخليقة ربها وفاطرها المحسن اليها بأنواع الإحسان بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وتعريف الطريق الموصل الى رضاه وإبطال ما يضاد ذلك وينافيه ، فابتداؤها من الله وانتهاؤها اليه سالمة من هذيانات الملحدين وافتراء المفترين ، وقد أكمل الله الدين لنبيه وأمته فلم يحوجه هو ولا أمته الى عقل ونقل سواه ، قال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم

وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الأسلام دينا ﴾ ولا يمكن أن يعارضه عقل صحيح ولا علم صادق . ومن تأمل ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة وجدها شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها وثبوت نقيضها ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بما تعرفه العقول جملة وتفصيلا ، أو تعرفه جملة ولا تهتدى الى تفصيله ، أو تخبر بأمور لا تهتدى اليها العقول بمجردها لا جملة ولا تفصيلا ، ومحال أن تخبر بما تحيله العقول الصحيحة . وهذا يعرفه كل من له خبرة بالشريعة الإسلامية وخبرة بمقالات الأمم ، وقد تتبع كبار العلماء واساطين الحكماء وفحول أهل النظر ذلك فوجدوه كذلك فى جميع الحقائق التى جاءت بها الرسل ، وبرهنوا أن كل ما خالفها فهو ضلالات وجهالات وخيالات حتى باعتراف من أنصف من هؤلاء الملحدين فضلا عن أولى الألباب والبصائر وأهل العقول الوافية المغتذية بالوحى والهداية النبوية ، فانهم علموا علم اليقين أن جميع ما جاءت به الرسل من أمور الغيب ومن الأحكام الشرعية والقدرية والجزائية فهو حق اليقين فتيقنوه بقلوبهم وشهدت به ألسنتهم وهدوا به الخليقة ، قال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون . ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد ، أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجدا وبكيا ﴾ ولما ذكر صفات أولى الألباب قال عنهم : ﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ﴾ الآية .

(الوجه الرابع والثلاثون)

أن أصل بلاء المشركين والملحدين قياس الرب العظيم بالمخلوق الناقص الحقير ، ولم يعترفوا أن الله ليس كمثله شىء وأن له المثل الأعلى فى السموات

والأرض وأن له العظمة كلها والكبرياء كله والمجد والحمد والجلال وأن ما للخلق من أولهم الى آخرهم من قوة وعظمة وأوصاف فانها تضمحل غاية الاضمحلال ولا يبقى لها نسبة بوجه من الوجوه إذا نسبت الى عظمة الله وجلاله وكماله ، وإلا فلو علموا أن الله تعالى هو الخالق لجميع الموجودات أعيانها وأوصافها وأفعالها ومن سواه مخلوق ، وأنه مالك الملك المطلق ومن سواه عبد مملوك ، وأنه العليم الذى أحاط علمه بكل شىء ، الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء ، القدير الذى لا يعجزه شىء العزيز الذى علا على كل شىء وقهر المخلوقات كلها ودانت لعزته وقدرته ، وأنه الأول الذى ليس قبله شىء ، الآخر الذى ليس بعده شىء ، الظاهر الذى ليس فوقه شىء ، الباطن الذى ليس دونه شىء ، الحكيم فى كل ماخلقه وحكم به شرعا وقدرا وجزاء ، إلى آخر ما وصلت اليه معارف الرسل وأتباعهم من أوصافه فلا يحصى أحد ثناء عليه ، لو علموا شيئا من ذلك لعرفوا أن قولهم واعتقادهم أبطل الباطل وأشنع الكذب وأعظم الجراءة على الله والمكابرة لآياته وبراهينه التى خضعت لها الخليقة ﴿ تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا . ان كل من فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾ فهؤلاء الملحدون لما لم تصل معارفهم الضئيلة الى شىء من ذلك وحصروها فى بعض الأسباب ولم ترتق الى مسبب الأسباب ، ولم يصلوا من المخلوقات الى خالقها ، ظنوا أن ما وصلوا اليه هو غاية العلم ونهاية المعرفة جهلا وضلالا ، ومنهم من كان كذلك ظلما وعنادا . فيا أيها المؤمن بالله احمد الله على هذه النعمة التى هى أكبر النعم والسلامة من عقوبة الالحاد التى هى أكبر النقم

(الوجه الخامس والثلاثون)

أن هؤلاء الدهريين لما كانو يقولون ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا

وما يهلكنا الا الدهر ، وما هى إلا الطبيعة تتولد عنها الموجودات والحوادث ، حصروا مداركهم فى هذه الحياة الدنيا فادركوا منها ما أدركوا وجحدوا ما سوى ذلك من أمور الغيب وما أخبرت به الرسل من الغيوب والأحكام ، فضاقت دائرة علوم هؤلاء الملحدين وامتلأت قلوبهم من الكفر والكبر والسخرية بعلوم الرسل ، وساءت قصودهم ، وختم الله على مداركهم القلوب والاسماع والأبصار فلم ينتفعوا بها ، كما قال تعالى ﴿ وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴾ الآية ﴿ ان الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، ان فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ، فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ فنعوذ بالله من هذا الكبر الذى هبط بصاحبه الى هذه الدركات ومنعه من الوصول الى العلوم النافعة والسعادة والفلاح ، وحسَّن له ما هو عليه من العلوم الناقصة والأعمال القباح . ولهذا قال ابن القيم رحمه الله : المعلومات المعاينة التى لا تدرك إلا بالخبر أضعاف أضعاف المعلومات التى تدرك بالحس والعقل ، بل لا نسبة بينها بوجه من الوجوه ، ولهذا كان إدراك السمع أعم وأشمل من إدراك البصر ، فانه يدرك الأمور المعدومة والموجودة والحاضرة والغائبة . والمعلومات التى لا تدرك بالحس والأمور الغائبة عن الحس نسبة المحسوس اليها كقطرة من بحر ، ولا سبيل الى العلم بها إلا بالخبر الصادق . وقد اصطفى الله من خلقه أنبياء أنبأهم من أنباء الغيب بما يشاء ، وأطلعهم منها على ما لم يطلع عليه غيرهم ، فليس كل ما أخبر به الأنبياء يمكن معرفته بدون خبرهم بل ولا أكثره ، ولهذا كان أكمل الأمم علما أتباع الرسل وان كان غيرهم أحذق منهم : فى علم النجوم والهندسة وعلم الكم المتصل والمنفصل ونحوها من العلوم التى لما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وآثروها على علوم الرسل ، وهى كما قال الواقف على نهايتها : ظنون كاذبة وعلوم غير نافعة ، فنعوذ بالله من علم لا ينفع ، وإن نفعت فنفعها بالنسبة الى علوم الأنبياء كنفع العيش العاجل بالنسبة الى

الآخرة ودوامها فليس العلم فى الحقيقة إلا ما أخبرت به الرسل عن الله طلبا وخبرا ، فهو العلم المزكى للنفوس ، المكمل للفطر ، المصحح للعقول ، الذى خصه الله باسم « العلم » وسمى ماعارضه « ظنا » لايغنى من الحق شيئا وخرصا وكذبا . وإذا تأملت ما عند المعارضين لنصوص الأنبياء بعقولهم رأيته كله خرصا ، وعلمت أنهم هم الخراصون ، وان العلم فى الحقيقة ما نزل به الوحى على الأنبياء والمرسلين ، وهو الذى أقام الله به حجته ، وهدى به انبياءه وأتباعهم ، وأثنى عليهم به ، وذكر الآيات الدالة على هذا . انتهى

(الوجه السادس والثلاثون)

أن آيات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومعجزاتهم التى شاهدها الخلق العظيم ، وتناقلتها القرون ، واجتمعت عليها الدلالات المتنوعة : دلالة العقل ، ودلالة الحس ، واضطرار الخلق الذين شاهدوها أنها من عند الله ومن آياته وبراهينه ، تهدم الأصل الذى أصله الملاحدة حيث لم يثبتوا إلا ما دل عليه الحس ، فان أكثر المحسوسات إذا نسبت لآيات الأنبياء ومعجزاتهم لم يكن لها اليها نسبة من هذه الجهة ، فضلا عن بقية الاستدلالات عليها ، فهى من أقوى الطرق وأوضحها وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله .

قال ابن القيم رحمه الله : وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها ، فانها جمعت بين دلالة الحس ودلالة العقل ، ودلالتها ضرورية بنفسها ، ولهذا يسميها الله « آيات بينات » فان انقلاب عصا تقلها اليد : ثعبانا عظيما يبتلع ما يمر به ثم يعود عصا كما كانت ، وكذلك اليد ، وفلق البحر طرقا ، والماء قائم بينهما كالحيطان ، ونتق الجبل من موضعه ورفعه على قدر العسكر العظيم فوق رءوسهم ، وضرب حجر مربع بعصا فتسيل منه اثنتا عشرة عينا تكفى أمة عظيمة ، وإخراج الناقة لصالح ، وتصوير طائر من طين ثم ينفخ فيه النبى فينقلب طائراً ذا لحم وريش وأجنحة يطير بمشهد من الناس ، وإنزال العقوبات المتنوعة على

المكذّبين للأنبياء ثم نجاة النبي ومن معه من المؤمنين ، وإيماء الرسول إلى القمر فينشق نصفين بحيث رآه الحاضر والغائب ويخبر به كما يراه الحاضرون ، وكذا بقية الآيات التي شاهدها الناس من النبي ﷺ وهي متنوعة جداً ، وأمثال ذلك من الآيات من أعظم الأدلة على الصانع وصفاته وأفعاله ، وصدق رسله واليوم الآخر ، وهذه من طرق القرآن التي أرشد الله إليها عباده ودلهم بها ، كما دلهم بما يشاهدون من أحوال الحيوانات والنبات والمطر والسحاب والحوادث التي في الجو ، وأحوال العلويات : من السماء والشمس والقمر والنجوم ، وأحوال النطفة وتقلبها طبقاً بعد طبق . انتهى .

وفي هذا إبطال لقول من يستهين بمعجزات الأنبياء ويجاري الملحدين في تحليلها تحليلا يعلم بالضرورة بطلانه ، وأنه قدح في الضروريات والمحسوسات ، ولكن التقليد الأعمى والخضوع للملاحدة وموافقتهم على كثير من أصولهم الباطلة أوصلهم إلى حالة الاستهانة بآيات الأنبياء وخوارق ما أجرى الله على أيديهم مما هو معلوم بالحس والعقل والخبر والمشاهدة ومنقول نقلا متواتراً لايشبهه شيء من المتواترات ، والله تعالى ينوّع آياته ويجعلها في كل فن وتصريف لتقوم الشواهد على توحيده وصدق رسله ، ليحيا من حيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة ، وليعلم العباد أن قدرته تعالى يصرّف بها الأمور بأسباب يعرفها العباد وأسباب لايعرفون وجهها ، وإنما يعرفون نتيجتها وفائدتها الدالة على صدق رسله وكذب أعدائه وبطلان قولهم الذي خالفوا فيه الرسل . والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

(الوجه السابع والثلاثون)

أن يقال لهؤلاء الملحدين الدهريين ما قالته الرسل لأسلافهم ﴿ أفي الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ فالله تعالى وجوده أظهر الموجودات ، وهو واجب الوجود ، وغيره وجد بعد العدم . وهو تعالى فاطر السموات

والأرض ، فكل الموجودات الحاضرة والسابقة واللاحقة وجميع الحوادث في جميع الأوقات كلها بخلقه وتسخيره وتدبيره وتصريفه أوجدها بعد العدم ، أمدها بكل ما تحتاج إليه ، وحفظها من الزوال والاضمحلال ، وهو يحييها ويميتها ويعدمها ويبقيها ويتصرف فيها بكمال الحكمة وبديع العناية ، قد شهدت بوحدانيته جميع الموجودات ، وخضعت لعظمته جميع الكائنات وافتقرت إليه جميع البريات في كل شؤونها ، كل يوم هو في شأن : شؤون يبديها ويبتديها ، وقد قامت البراهين القواطع التي لا تعد ولا تحصى على هذا الأمر ، وشهدت به الكتب والرسل وأتباعهم وأولو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة ، لا يمكن أحداً له مسكة من عقل أن ينكر هذا إلا هؤلاء الملحدون الذين فسدت عقولهم ومرجت أخلاقهم واقتدوا بكل شيطان مريد كفرعون وأشباهه الذى قال له موسى ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لا ظنك يا فرعون متبورا ، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ وحيث خاطب موسى عليه السلام حين أمره بالايمان ﴿ قال : ومن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ فاستدل عليه بجميع الكون ناطقه وصامته وأنه الذى انفرد بخلقه لم يشاركه في ذلك مشارك ، وهدى كل مخلوق إلى مصالحه ومنافعه المشاهدة . فهذا البرهان جميع العقلاء يعترفون به ولا ينكره إلا كل مكابر مباهت ، مثل فرعون وأئمة هؤلاء ، ولهذا لما جاءه موسى وخاطبه ﴿ قال فرعون : وما رب العالمين ﴾ انكاراً له ﴿ قال ـ موسى ـ : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ فكل عاقل لا بد أن يعترف به ، ومن لم يعترف به فانه إما مجنون أو معاند مباهت ، أو ضال مقلد تقليداً أعمى ، فقال فرعون مموها على أهل مجلسه : الا تسمعون ما يقول موسى ؟ فقال موسى ربكم ورب آبائكم الأولين إنكاراً عليهم أنهم أنكروا أمراً لم يزالوا ولا يزالون إليه مضطرين مفتقرين كل وقت ، وهو ربوبية الله لهم ولآبائهم الأولين التى لا يمكن

إنكارها ، فهو الذى رباهم بخلقه ونعمه صغاراً وكباراً هم وأصولهم وفروعهم وسائر الخلق ، ولكنهم باهتوا ، ومن مباهتهم ومكابرتهم رميه لموسى بالجنون وهو يعلم أنه أكمل الناس عقلا ، وهو الذى أقامه وأقعده وأحرجه فى أحواله كلها ، فقال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون فلما رآه يكابر ويجحد ربوبية الله للخلق التى لايمكن المكابرة فيها قال له : أولوجئتك بشىء مبين ظاهر واضح قوى دال على صدق وصحة ما جئت به وان الجاحدين هم المبطلون ، فذكر الآيات وما جرى له مع فرعون وكيف اعترف السحرة كلهم أنه من عند الله وأثر فيهم وآمنوا الايمان الصحيح الصادر عن قوة وبصيرة وخبرة تامة ولم يبالوا بالمعارضات وما أصابهم من فرعون ، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون . فهذه فى الحقيقة حالة هؤلاء الملحدين مع جميع الرسل ولقد قص الله علينا من نبأهم ما فيه عبرة للمعتبرين وحجة على المعاندين ، وكم فى الكتاب والسنة من الدلالات العقلية والنقلية على ذلك فمن جحد ذلك أو شك فيه فبأى حقيقة يعترف ؟ ومن أنكره فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم

(الوجه الثامن والثلاثون)

أن يقال لهؤلاء الملحدين الماديين : هاتوا برهانكم وميزانكم الذى تزعمون أنه ميزان الحقائق ، وقابلوه بميزان الحق اليقين وهو ميزان الدين . زنوا الحقائق مفصلة حقيقة حقيقة ، واعرضوها على ذوى العقول الصحيحة والأذهان والمعارف الصادقة فانه يتضح عند ذلك أنهم كانوا كاذبين مبطلين

أول ذلك أن يقال : قابلوا بين أى موجود من الموجودات التى اختصصتم باثباتها أو التى اشترك بنو آدم فى إثباتها وبين وجود الخالق ، فان وجود الخالق جل جلاله وتقدست أسماؤه وجود واجب ، مستحيل وممتنع ثبوت نقيضه ، فهو أعظم الموجودات وأظهرها ، بل لا وجود لشىء

من الأشياء إلا بإيجاده ، ووجود ما سواه من المخلوقات والحوادث مفتقر غاية الافتقار إلى ربه ليس لشيء منها من نفسه وجود ، فليس لها إلا العدم ، فهى حادثة بعد العدم ومضطرة إليه كل وقت بعد الوجود ، لو قطع عنها الأمور التى حفظها بها وأبقاها لاضمحلت ، والله تعالى وجوده مركوز فى العقول والفطر ، معلوم بالضرورة وبالطرق التى هى أقوى الطرق الدالة على الحق ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ﴾ فحصر الحق فيه إذ هو الحق الواجب فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، ولا حق لشيء من الأشياء إلا باستناده إليه فهو واجب الوجود الموجد لكل موجود

فواعجبا كيف يعصى الإلـٰـه أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحـد

ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون عن الحق الذى هو أظهر الأشياء وأوضحها ، ولكن العلة والسبب الذى حملهم على هذه المجادلة الباطلة قوله عنهم : ﴿ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا ﴾ فتكذيبهم بجميع الكتب المنزلة من عند الله ، وبجميع الرسل ، منعهم من قبول الحق الذى لا حق غيره وتركهم فى ضلالهم وطغيانهم يعمهون ، ثم ذكر وعيده لهم بقوله ﴿ فسوف يعلمون إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل ﴾ الآية . زنوا أيها العقلاء ما ثبت لربكم العظيم من الوحدانية فى أوصاف الكمال ، والتفرد بكل جلال وجمال ، والتفضل بكل خير ونعم جزال ، وما شاهدته الخليقة من عنايته وحكمته وإتقانه المخلوقات فى غاية الإحكام والانتظام العجيب الذى حسب العقول والأفهام ، إذ تهتدى إلى ما بثه فى المخلوقات من حسن الخلق وبديع الصنع ولطيف الانتظام وقيام المنافع التى لا تحصى المترتبة على ذلك ، ثم انظروا إلى ما نشره من رحمته التى وسعت كل شيء ، فما من مخلوق يستغنى عن رحمة خالقه طرفة عين ، فما بالعباد من نعمة ظاهرة ولا باطنة خفية أو جلية إلا من الله ، وهو الذى لا يأتى بالخير

والحسنات إلا هو ولا يدفع السوء والسيئات إلا هو ، وهذا من أكبر الأدلة على سعة علم الله ورحمته وشمول حكمته وعظمة اقتداره

وانظر ما فى العالم العلوى والسفلى من الحوادث والتدبيرات المتنوعة والأفعال العظيمة وما تدل عليه من عظمة مدبرها وجلاله وكبريائه ومجده ، وأنه المتفرد بالوحدانية والكمال الذى لا غاية له . وهذه أمور معلومة بالضرورة والمشاهدة ، فهل يستوى من أثبت ما دلت عليه من وحدانية الله وثبوت أوصافه وأسمائه الحسنى ومن جحد ذلك وأنكره ورد الأدلة القواطع وكابر وعاند وجادل بالباطل ؟ وهل يستوى الأمر بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له ، والقيام بحمده وذكره وشكره والإنابة إليه التى هى أفرض الفروض التى جاءت بها الرسل وأفضل ما قام به العباد واكتسبته القلوب وأعظم سبب يوصل إلى كل خير وسعادة ومطلوب ؟ أم الأمر بضد ذلك من الشرك بالله والاستكبار عن عبادته وتعلق القلب بالخلق والوقوف مع المادة وعبادتها

وهل يستوى ما أمرت به الرسل من الصدق فى الأقوال والأفعال ، والنصيحة لله ورسوله وكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم ، والأمر بالبر والصلة والقيام بحقوق الجيران والأصحاب والمعاملين ومن يتصل بهم العبد على اختلاف طبقاتهم ؟ أم الأمر بضد ذلك ؟ وهل يستوى الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، والنهى الفحشاء والمنكر والبغى على الخلق فى دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، والتعاون على البر والتقوى ، أم الأمر بضد ذلك ؟ وهل تستقيم الأمور كلها وتصلح الأحوال إلا بالتزام ذلك والعمل به وهل يمكن القيام بأصول الإيمان وشرائع الاسلام والوفاء بالحقوق والعقود والعهود والورع عن المحارم القولية والفعلية إلا مع الإيمان بالله واليوم الآخر الذى هو أساس الخيرات والصلاح المطلق ؟ وهل إذا أطلق الملحدون الماديون على هذه الأصول العظيمة والشرائع الجميلة النافعة التى لا ينفع غيرها : أنها رجعية ترجع بالناس إلى الوراء ، وأنها قديمة والقديم يجب أن يزهد

فيه ويحذر عنه ؟ هل هـذا القول منهم والدعاية الخبيثة إلا من أكبر الأدلة على ضعف عقولهم وسفاهة آرائهم وكذبهم الصريح ؟ وهل يستغنى العباد عنها فى حالة من أحوالهم ؟ وهل هى إلا أكبر نعمة وأجل كرامة أكرم الله بها العباد ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث الله فيهم رسـولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ وقال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسـلام دينا . ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ فمن وزن بعقله الصحيح ما جاءت به الرسل وأمرت به وأرشدت إليه من معرفة الله وعبادته والإنابة إليه والأمر بالقيام بجميع الحقوق كلها على وجه العدل والفضل والاحسان وما نهت عن ضده ثم نظر إلى ما يدعو إليه أهل الإلحاد عرف أن الخير والفلاح والصلاح الدينى والدنيوى العاجل والآجل الظاهر والباطن مع ما دعت إليه الرسل ، وان الملحدين ترمى دعوتهم إلى الانحلال من كل خلق جميل والحث على كل خلق رذيل ومآلها الفوضوية التامة والانطلاق مع شهوات النفوس حتى تكون البهائم أشرف منهم وأنفع ، وهـذا هو الواقع بلا ريب ، ولسان حالهم ومقالهم يصرح بذلك ، فنسأل الله أن يتم علينا وعلى المسلمين نعمه ، وأن يثبتنا على دينه ويزيدنا من فضله وكرمه

ومن أعجب العجائب أن كثيراً من الكتاب العصريين والسـياسيين الذين يسعون فى معالجة كثير من مشاكل الحياة ويطلبون حلها من جميع النواحى ومشكلة الإلحاد الذى جرف بتياره أكثر الناشئة لم يسعوا فى حلها ومداواتها بالرجوع إلى الايمان الصحيح واليقين النافع والصلاح المطلق من جميع الوجوه ، بل تركوهم فى ضلالهم يعمهون وفى غيهم يترددون ، وازدادت المشاكل التى يريدون حلها مشاكل أخرى تعذر حلها كما هو المأمول ، فكل

مشاكل الحياة إذا لم تبن على الإيمان والدين الصحيح ازدادت تعقداً وعظم ضررها وبعد خيرها ، فلو أنهم أسسوا معالجاتهم المتنوعة على الدين الصحيح ووجهوا النشء إلى عقيدته والتخلق باخلاقه ، لأثمرت مساعيهم كل زوج كريم ، ولتوجهت الوجوه والأعمال إلى الخير والصلاح ، وانصرفت عن الشر والاضرار والأعمال القباح ، فالفساد لا يسود إلا إذا عدم الايمان الذى ينافيه ولا يجامعه

(الوجه التاسع والثلاثون)

أن يقال لهؤلاء الملاحدة الماديين : من الذى أوجد هذه المخلوقات العظيمة والكثيرة ، ومن الذى أحكمها هذا الإحكام البديع ، ومن الذى نظم حركاتها العجيبة التى تحار الأفكار فى حسنها وحسن نظامها ؟ فسيجيبون إن هذا كله أثر المصادفة وأعمال الطبيعة العمياء التى ليس عندها علم ولا قدرة ولا إرادة ولا غيرها من الأوصاف وهذا قولهم الذى صرحوا به واقتدوا فيه بالمتمردين من أئمتهم الضالين فحينئذ يتضح لك أن عقول هؤلاء أقرب إلى عقول المجانين منها إلى عقول الصبيان الذين لا يعقلون، فلو تركت هذه العوالم العظيمة ساعة واحدة بل لحظة واحدة للمصادفة والفوضوية ، لزالت السموات والأرض واختبطت العوالم ﴿ ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليما غفوراً ﴾ ، وإذا أورد عليهم بعض الإيرادات الصحيحة المبطلة لقولهم أجابوا بأنه يحتمل كذا ويحتمل كذا ، احتمالات فى غاية الضعف والوها . فياعجبا لمن اغترَّ باحتمالات عقول قد تبين سفاهة أهلها وجراءتهم وهجومهم على أشرف العلوم وأعظم الحقائق فابطلوها وانكروها ، ولا يغرنك كما غرهم مهارتهم فى بعض علوم الهندسة والطبيعة والمخترعات الصناعية فانها لا تغنى من الحق شيئاً ولا تدل على فضل أهلها الفضل الحقيقى ولا شرفهم ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ، وجعلنا لهم

سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ والله تعالى جعل للعقول حداً لاتتعداه ولا تتمكن من مجاوزته ، وما أدركته وتدركه من المعلومات فهو قليل جداً فى جانب مالا تعلمه من هذه العوالم ، فكيف تتجاوز هذه العوالم التى قصرت العقول عن إدراكها حتى تجحد الرب العظيم الذى هذه العوالم كلها داخلة فى ملكه وتصريفه وتدبيره ، ثم ترجع إلى هذه المخلوقات وما فيها من الحوادث فتدعى أنها وليدة المصادفة من غير خالق خلقها ولا محدث أحدثها ولا حكيم ابتدعها ونظمها ، سبحانك هذا هذا بهتان وجرم عظيم ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا ﴾ فكيف بمن جحده ونفاه بالكلية

(الوجه الأربعون)

أن يقال : من أكبر الخيانات للعلم والحقيقة أن تكون بحوث علماء الطبيعة والمواد والعناصر مبتورة مقطوعة الصلة بالله وبدينه ، فانهم يبحثون فى الموجودات بحوثاً ضافية كثيرة ويستخرجون منها فوائد كثيرة ، ولكنهم مع ذلك لا نجدهم يذكرون الله فيها ولا يقدرون قدر خالقها ومدبرها ، ولا يشكرون من أنعم بها ، ولا يذكرون مشيئة الله وإرادته وقدرته فيها ، حتى يظن الظانون بل يظن كثير من هؤلاء الباحثين أن هذه الموجودات التى وقع البحث فيها هى حاصل الوجود لا وجود سواها ، فيقعون فى الجحود والانكار الصريح ، ويصيرون فى خبط وخلط من جهة العقيدة الصحيحة ﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج ﴾ فاهمال أصل الأصول من علمهم وذكرهم وتوجههم وتوجيههم أضل خلقاً كثيراً ، فلو أنهم قاموا بما يجب عليهم وعلى الخلق من بناء المعلومات على حقائقها وأصولها ، والموجودات على موجدها ، والنعم على مسديها والمتفضل بها لهدوا إلى صراط مستقيم ، وسلموا من الخيانة وطرق الجحيم

(الوجه الحادى والأربعون)

أن الله أيد رسوله محمدا ﷺ بأمرين عظيمين قائمين إلى يوم القيامة ، كل واحد منهما يشتمل على براهين كثيرة قطعية تدل على وحدانية الله وصدق رسوله ، أحدهما شهادة الله له ، والثانية هذا القرآن ، قال تعالى ﴿ قل أى شىء أكبر شهادة . قل الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ فأما شهادته لرسوله ولما جاء به فبقوله الذى أنزله فى كل كتاب وعلى لسان كل رسول وشهد به وتيقنه أهل البصائر والألباب ، وبفعله تعالى بما أيده به من القوة والنصر والتأييد ، وإظهار دينه على الدين كله ، وبما أنزله فى شرعه من الأخبار الصادقه النافعة والحكم والأحكام والهداية والإرشاد للصلاح المطلق فى جميع الأمور ، فما بقى خير إلا أمر به ولا شر إلا نهى عنه وحذر ، ولا طيب إلا أحله ، ولا خبيث إلا حرمه ، وذلك فى الأصول والفروع ، وبما جبل رسوله عليه من الأخلاق الحميدة التى هى أعلى الأوصاف وأكملها ، فجمع الله فيه وله من الخير والأوصاف الجميلة ما كان متفرقاً فى الكمل من الخلق ، وفى جميع الشرائع ، وهى مشاهدة محسوسة يعترف بها المؤمنون به ويعرفها غيرهم لايمترى فيها إلا جاهل أو مكابر . وأما شهادة هذا القرآن فان الله منذ أنزله إلى أن تقوم الساعة قد تحدى به الإنس والجن ، وأنهم لم يأتوا ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله فيما يقدحون به فى هذا الدين لبلاغته العظيمة وحسن أسلوبه وإخباره بالغيوب وما حكم به من الأحكام الأصولية والفروعية وما هدى وأرشد إليه من الصلاح والفلاح والكمال الدينى والدنيوى ، وما حذر عنه من الشر والاضرار والعقوبات العاجلة والآجلة ، وما كان فيه من الأحكام التى تصلح لكل زمان ومكان وما شرع من الحقوق العادلة بين الخلق أفرادهم وجماعاتهم إلى غير ذلك من آيات القرآن التى لا يمكن أن يعارضها علم صحيح ولا عمل نافع ، وكل خير لاشر فيه فانه من أحكامه ومما دل عليه ، فليأت

المنكر بمثال واحد صحيح خارج عن هذا الأصل . فمجرد وقوف الناظرين على هاتين الشهادتين العظيمتين والتأمل بما اشتملتا عليه من البراهين القاطعة على ما لله من الوحدانية وصفات الكمال والجلال كله وعلى صدق ما جاء به الرسول ، يكفى وحده فى إبطال ما ناقضته من أقوال الملحدين ، لأنه إذا اتضح الحق علم يقينا أن ما خالفه باطل فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ، سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾

فالحمد لله على ما بينه لعباده من الآيات التى لا تزال مشاهدة ولا تزال متصرفة متنوعة ، شاهدة بصدقه وصدق رسله ، وكذب الكافرين به المكذبين لرسله

(الوجه الثانى والأربعون)

النظر الصحيح إلى ما يأمر به الدين والإيمان من تلقى أحوال الحياة والتطورات المتنوعة ، وما يتلقاه أهل الإلحاد والإيمان بالمادة والطبيعة . فانه لابد للأفراد والجماعات من حصول نعم ومسارّ ومحن ومضارّ . فالإيمان والدين الصحيح يأمر عند النعم والمسار بشكر المنعم والثناء عليه بها والاستعانة بها على مقاصد الحياة الدينية والدنيوية وأداء حقوق النعم من كل وجه ، وعند المكاره يأمر بالصبر والرضا والاحتساب ورجاء الأجر ، مع السعى فى دفعها قبل نزولها ، وتخفيفها أو دفعها بعد نزولها فيكتسب المؤمن الخير وراحة القلب فى كل الحالات وهذه هى الحياة الطيبة ، مع ما يرجو ويطمع فيه من الثواب العاجل والآجل

أما الملحدون فلما كانت الدنيا هى غايتهم : لها يعملون ، ولها يطلبون ، ولا غاية لهم سواها ولا إيمان لهم بغيرها ، فانهم يتلقون التطورات المختلفة

كما تتلقاها البهائم بقلوب جشعة ونهم كنهم الأنعام أو أعظم : لايشكرون على النعماء ، بل يكفرون ويبطرون ويطغون ، ولا يصبرون على المحن بل يجزعون ويألمون كما تألم البهائم ، فتجتمع عليهم الآلام الظاهرة والآلام القلبية الباطنة . قال تعالى ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ فآثار الإيمان الصحيح فى العاجل والآجل خير وسعادة وفلاح ، وآثار الجحود شر وضرر وعواقب وخيمة

(الوجه الثالث والأربعون)

يقول الملحدون : الترقى شامل لكل شىء . وقصدهم بذلك إبطال الأديان وأن أفكارهم المنحرفة عن الحق مازالت تترقى حتى فى نبذهم الدين واختيارهم للجحود ، وهذا تكذبه الأديان كلها ، والواقع يشهد بكذبه ، وأهل العقول الصحيحة متفقون على أن الترقى المشاهد الآن إنما هو منحصر فى الصناعات والمخترعات وما يحدث عنها من الأمور المادية ، وأما ترقى الأرواح والأخلاق فانه بالعكس : فان المادة التى يشترك فيها البر والفاجر والمؤمن والكافر قد ترقت ترقيا عظيما وخصوصاً فى هذا القرن ، وأما الأديان والأخلاق فانها فى هذا الوقت هبطت هبوطاً عظيما . ولهذا لما كان النوع الأول خالياً من الدين والإيمان صار هذا الترقى الدنيوى الصناعى ضرره كبيراً من وجهين :

أحدهما : أنه صار سبباً لاغترار كثير من الخلق ، وظنوا بجهلهم أن الترقى الدنيوى دليل على أن أهله أولى بكل خير من غيرهم . وجهلوا بل ضلوا ضلالا مبينا ، فان الانسان قد يكون من أمهر الخلق فى أمور الطبيعة وهو من أجهل الخلق فى الدين والأخلاق والأمور النافعة فى العاجل والآجل

الوجه الثانى : أن هذه المخترعات حيث خلت من روح الدين ورحمته وحكمته صارت نكبة عظيمة على البشر بما ترتب عليها من الحروب التى

لا نظير لها والقتل والتدمير وتوابع ذلك ، وعجز ساستها وعلماؤها أن ينظموا للبشر حياة مستقرة عادلة طيبة ، بل لا يزالون ينتقلون من شقاء إلى شقاء آخر ، وهذا أمر حتم لابد منه وجريان الأحوال يدل عليه ، فالخير كله فى الدين الصحيح ، والشر كله فى الإنكار والجحود . والله أعلم . يؤيد هذا ويوضحه توضيحاً بيناً واقعاً :

(الوجه الرابع والأربعون)

وهو أن الماديين ـ رؤساءهم وعلماءهم ـ لا زالوا مكرسين علومهم وجهودهم وأعمالهم فى حل مشاكل الحياة وقد عجزوا عنها كل العجز ، فكلما حلوا مشكلة نتج عنها مشاكل ، وكلما وجهوها من جهة تبين فيها النقص والخلل والاضطراب . أما هذا الدين الإسلامى الذى جاء به محمد ﷺ فانه هو الطريق الوحيد الذى تنحل به جميع مشاكل الحياة واحدة بعد الأخرى ، وتزول به الشرور والأضرار ، وتحصل به الخيرات

ولنذكر نموذجاً من المشاكل التى اضطرب فيها الخلق اضطراباً عظيما ولا سبيل لهم إلى الراحة والاستقرار حتى يفيئوا إلى الدين . فمن أعظمها مشكلة العلم ، فانه إذا صح صحت العقائد والأفكار وصلحت الأعمال المبنية عليه ، وقد كانت شريعة الاسلام تحض على العلم وترغب فيه ، وتأمر بل تفرض على العباد أن يتعلموا جميع العلوم النافعة فى أمور دينهم وفى أمور دنياهم ، ومع حضها وترغيبها فى العلوم فقد تكفلت ببيانها وتفصيلاتها ، فقد بين الله فى كتابه وعلى لسان رسوله جميع ما يحتاجه العباد من علوم العقائد والأخلاق والأحكام والأصول والفروع والعلوم المتعلقة بالأفراد والجماعات

أما العلوم الدينية فقد فصلتها تفصيلا بعد ما أصّلتها تأصيلا ، والعلوم الدنيوية أسست لها الأصول والقواعد وهدت إليها وأرشدت لها العباد ،

فما من علم نافع إلا بينته . وبهذا يسير العلم الصحيح على الطريق المستقيم ، ويتساعد علم الدين وعلم الدنيا وما يتعلق بالروح وما يتعلق بالجسد ﴿ إنّ هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴾ فجمع فى هذه الآية بين علم المسائل الصحيحة وهى الحق النافع ، وبين علم البراهين والدلائل وهو هداية السبيل الموصلة إلى كل علم ، المبرهنة عن جميع المعارف

وأما الماديون فهم يخصون بالعلم : علوم الدنيا التى هى وسائل لغيرها ، ويقدحون وينكرون العلوم الدينية التى لا تنفع علومهم بدونها ولا يترجح خيرها على شرها حتى تستند وتعتمد عليها ، وبهذا تخبطت علومهم وبقوا فى أمر مريج متناقضين ، متضاربة آراؤهم غير مستقرة أفكارهم ، فلم يحلوا مشكلة العلم بوجه من الوجوه ، بل علومهم القاصرة أطغتهم واستكبروا بها عن علوم الرسل وعن الحق الصريح المبين

ومن المشاكل : مشكلة الغنى والفقر ، وقد تقدم أن هذا الدين حلها حلا تتم به الأمور وتحصل الحياة الطيبة وأنه كما أمر بسلوك الطرق المشروعة فى أسباب الرزق المناسبة لكل زمان ومكان وشخص ، فقد أمر بالاستعانة بالله فى تحصيلها ، وأن تجتنب الطرق غير المشروعة ، وأن نقوم بواجبات الغنى المتنوعة ، وكذلك عند حلول الفقر أمر بالصبر وتلقى ذلك بالتسليم وعدم التسخط ، مع السعى فى طلب الرزق بأنواع المكاسب والأعمال ، ونهى عن البطالة والكسل الذى يضر فى الدين والدنيا ، ومع أمره بالصبر وفعل الأسباب الدافعة للفقر والمخففة له فقد نهى عن ظلم الخلق فى دمائهم وأعراضهم وأموالهم والتوثب على حقوقهم بغير حق كما هو دأب الفقراء الذين لا دين لهم

ومن ذلك مشاكل السياسات الكبار والصغار أمر بحلها ، وذكر الطرق الموصلة إلى ذلك بفعل ما توضحت مصلحته وترك ما تبينت مفسدته ، والمشاورة فى الأمور المشكلة والمشتبهة فى كل قليل وكثير ، وهذه : أصول

لا يمكن بسطها فى هذه الرسالة المختصرة ، ولكن نموذج منها يكفى اللبيب

ومن ذلك مشاكل الحقوق والمعاملات ، فقد أتى الدين فيها بغاية العدل ، وأمر بالقيام بالحقوق على اختلاف أنواعها : الحقوق الراتبة والحقوق العارضة ، وهى فى أكمل ما يكون من الحسن ، وبها يندفع الضرر والشر والخصام ﴿ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾

وبالجملة فما من مشكلة كبيرة ولا صغيرة إلا إذا بنيت على الشريعة الاسلامية المحضة تمت أمورها واستقامت أحوالها ، وصلحت من جميع الوجوه ، لا فرق بين مكافأة المحسنين فى الدنيا والآخرة ومعاقبة المجرمين كذلك . والله أعلم

(الوجه الخامس والأربعون)

أن هؤلاء الملحدين روّجوا إلحادهم بتحسين ما هم عليه بأوصاف إذا سمعها الجاهل هالته واغتر بها وظن صدقها ، وكل منصف عارف يعرف كذبها وبطلانها ، فزعموها تجديداً ورقياً وتقدماً إلى الأمام ، وما أشبه ذلك من العبارات التى يغتر بها الجاهلون . وأما البصير العاقل فيعلم أن كل تقدم ورقى روحى ومادى فالدين قد أتى به على أكمل الوجوه وأسلمها من الضرر والفساد ، فان الدين كما أمر باصلاح الدين فقد أمر باصلاح الدنيا الإصلاح الحقيقى النافع عاجلا وآجلا ، عكس ما كذب عليه أعداؤه بانه مخدّر مفتّر . فالدين أعظم قوة تدفع العباد إلى التقدم الصحيح كما قد فصل فى موضع آخر ، فمحاسن الدين الإسلامى أرسى من الجبال الرواسى وأعلى من النجوم الدرارى وأجلى نورا من الشمس المشرقة ، لا يقابلها ضدها ولا يقاومها الباطل المبهرج ﴿ قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ ولولا أن الباطل قد زخرف وروج بالعبارات والدعايات المتنوعة ونصرته الدول المنحرفة لم يقبله عاقل ولا أصغى إليه لبيب ، ولعرف الناس أنه أعظم

ظلمة من الليل وأضعف من كل ضعيف . وإذا أردت أن تعرف ذلك فقابل بين أصول الدين ومسائله وما يرغّب فيه وما يحذّر عنه ، وبين ما يناقضها من أقوال أهل الإلحاد ، تجد أقوالهم تضمحل وتتلاشى ويظهر بطلانها بهذه المقابلة ، فان الضد يعرف بضده ، فلولا الليل ما عرف النهار ، ولولا الباطل لما ظهرت براهين الحق هذا الظهور فى قوتها وحقيقتها ووضوحها وصدقها وحسنها ، وهذا من الحكمة فى مقابلة الباطل للحق ، كما أن من الحكمة أن يتبين الصادق من الكاذب والمؤمن من ضده والصحيح من الفاسد ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيَّ عن بينة ﴾ وبهذه المقابلة وظهور الحق تجد الحق يشبه بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض فى غاية الإحكام والإتقان ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ وتجد الباطل يبطل بعضه بعضاً وأهله فى غاية التناقض ، بل تجد الواحد منهم متناقضاً متهافتة أقواله

ثم انظر إلى الحق ووضوحه ووضوح ما دل عليه من الكتاب والسنة وما يؤيد ذلك من الفطر المستقيمة والعقول الصريحة قال تعالى ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ فالحق مسائله هى الصادقة النافعة وأحسن التفسير تفسيره وحدوده الواضحة

وأما ضده فان مسائله باطلة وضلال ، وحدوده فى غاية القلق والالتواء والصعوبة والهذر الكثير الذى ليس له حاصل ولا معانى يحصلها القارىء بسهولة ، وإذا وصل إليه وجده ﴿ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب ، أو كظلمات فى بحر لجىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ : ظلمة الضلال والجهل المركب والبسيط ، وظلمة الكبر والغرور

(الوجه السادس والأربعون)

أن يقال : إنه ممتنع كل الامتناع ومستحيل أن تتهذب النفوس

وتكتسب الفضائل بعلوم المادة المحضة وأعمالها ، والتجارب والمشاهدة أكبر برهان على ذلك ، فانها مع تطورها وتبحرها عجزت كل العجز عن تهذيب النفوس وإصلاحها الذى يتوقف عليه صلاح البشر ، وإنما الذى يتكفل بهذا الإصلاح ويتولى هذا التهذيب الصحيح ويوجه الأفكار إلى العلوم الصادقة ويوجه الأعمال إلى الخير ويزجرها عن الشر هو ما جاء به الدين الاسلامى ، فهو مصلح للعقائد والأخلاق ومهذّب الأفكار وحاثّ على الفضائل وزاجر عن الرذائل ، فروح ما دعا إليه الدين الإيمان بالغيب الذى يدخل فيه الإيمان بالله وبماله من الأسماء الحسنى والصفات والأفعال ، ويدخل فيه الإيمان بالملائكة وبالجزاء العاجل والآجل على الأعمال حسنها وسيئها التى لا تعرف إلا من جهة الرسل ، فعُلم بهذا أنه يتعذر الإصلاح الحقيق بغير الإيمان الصحيح والدين الاسلامى ، فعلوم المادة وإن ارتقت فوق ما يعلمه الناس أضعافا مضاعفة فانها لا تبلغ قريباً من علوم الأنبياء ، ولا تصل إلى ما وصلت إليه ، ولا تذعن لها النفوس ، ولا يكون لها من التأثير على النفوس ما لعلوم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، فان النفوس لا تذعن إلا عند إيمانها بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبدون ذلك يمتنع الإذعان كما هو معلوم من الطباع البشرية

(الوجه السابع والأربعون)

القرآن العظيم أكبر البراهين والأدلة الدالة على وحدانية الله وكماله ، وصدق رسله ، بأنواع إعجازه ببلاغته وأسلوبه وتأثيره ، وإخباره بالغيوب الماضية والحاضرة والمستقبلة ، واتفاقه وعدم اختلافه ، وتشريعه ، وإصلاحه جميع ما يحتاجه البشر ، وانه على اتساع علوم الطبيعة والعلوم العصرية لم يأت علم صحيح ينقض شيئاً من أصوله ، وإخباره بعلوم لم تكن موجودة وقت تنزيله ، وكون الذى أتى به لم يكن يقرأ كتاباً ولا يخطه بيمينه ولا تعلم من أحد ، بل زكى به العباد ، وكمل به الفضائل ، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .

وهذه المجملات تحتاج إلى تفصيل كثير ، فمن نظر إلى هذا جزم جزما لا يمترى فيه بأنه تنزيل من حكيم حميد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وبهذه الوجوه وغيرها أحدث فى الأرض انقلاباً عظيما لم يعهد له مثيل ، وكانت قد ملئت الأرض من الشرور المتنوعة فأزالها ، وتلوثت القلوب بالعقائد الخبيثة والأخلاق الرذيلة فاقتلعها وأحل محلها الهداية والمعارف والرشد والإصلاح ، فهو الدليل والبرهان ، وهو الحجة على توالى الزمان ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ فالقرآن زَلزل بتأثيره عقائد الجاحدين ، وأقضَّ مضاجعهم ، وبدل عقائد المؤمنين وأخلاقهم وأعمالهم بعقائد هى أصلح العقائد وأنفعها ، وأخلاق هى أحسن الأخلاق وأحمدها ، وأعمال هى أكمل الأعمال

(الوجه الثامن والأربعون)

من عرف حال النبي محمد ﷺ وما هو عليه من الأخلاق العالية ، وما أعطى من العلوم النافعة الشاملة لكل ما يحتاجه الخلق ، وما أيد به من الآيات والبراهين المتنوعة من كل وجه لا تعدّ ولا تحصى ، كل جنس من آياته ، بل كل نوع ، بل كل فرد منها ، يدل أكبر دلالة على أنه رسول الله حقاً وأن ما جاء به حق وما خالفه باطل ، فوقوف العاقل البصير على بعض آيات الرسول فى نفسه وفى شرعه وفيما أيد به يعرف به بطلان أقوال الملحدين ، وبطلان مذهب الماديين المنكرين لله ولرسله ودينه ، وأن هذا الإنكار منهم أكبر برهان على ضلالهم وجهلهم البليغ بالحق المبين ، وتفصيل هذا الوجه يستدعى مجلدات ، ولهذا كل نوع من آيات الرسول صنفت فيه المؤلفات على حدته فازداد به المؤمنون إيماناً وقامت الحجة على المعاندين المنكرين ، وقد قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ ولكن هؤلاء الماديين يشاهدون من آيات الله ما يضطر كل عاقل إلى الايمان واليقين ، وهم يتلمسون لها التحريفات

والتحليلات الباطلة ليدخلوها فى علمهم القاصر وينكروا بذلك قدرة الله ، خصوصاً فى هذه الأوقات التى ارتقت فيها علوم المادة ارتقاء هائلا وهو من أعظم الأدلة على وحدانية الله وكمال قدرته وحكمته ورحمته ، ولكن هؤلاء كما قال الله عنهم : ﴿ ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ فصارت علومهم ضرراً عليهم ، وخطراً عظيما على جميع البشر : ضرراً عليهم لأنهم تكبروا بها وفرحوا بها واحتقروا واستهزأوا بما جاءت به الرسل ، وصارت خطراً على جميع البشر بما يترتب وسيترتب عليها من الفناء والخراب والتدمير : تدمير النفوس وتدمير الأخلاق ، نسأل الله العافية والسلامة بمنه وكرمه

(الوجه التاسع والأربعون)

أن يقال لهؤلاء الملحدين القادحين فى الدين : قد علم أولو الألباب والنهى وأهل البصائر والعقول أن دين الإسلام الذى جاءت به الرسل ثم جاء به محمد ﷺ مكملا متمما معمما هو : دين الفطرة السليمة والحكمة العلمية والعملية والعقل والفكر والبرهان والحجة والحرية الصحيحة والاستقلال الصحيح ، كما وصفه الله ورسوله فى آيات كثيرة وأخبار صحيحة ، وكما هو المعروف المشاهد المحسوس فى هذا الدين واشتماله على هذه الأوصاف العظيمة ، يعلم به علما يقينياً لا شك فيه أنه الحق ، وما ناقضه فهو الباطل ، فهذه الأوصاف التى وصف بها الدين وحققتها المطابقة والمشاهدة تضطر العقلاء الى الجزم بأخباره ، والتحقق بأخلاقه وآدابه ، وسلوك جميع ما أرشد إليه من الهدايات المتنوعة ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

(الوجه الخمسون)

أن الإصلاح العلمى الواسع لأمور الدين ولأمور الدنيا ، بأنواعه من جميع الوجوه التى جاء بها محمد ﷺ مع تنفيذه عملا من أكبر الأدلة على

وحدانية الله وأنه الحق وقوله حق ورسله حق ودينه هو الحق ، فان البشر - الأمم السابقين واللاحقين - لم يشهدوا لهذا الاصلاح نظيراً ولا مقاربا بوجه من الوجوه ، والاستقراء والتتبع أكبر شاهد لهذا الأمر ، وهذا البرهان الواسع الكبير مما تضمحل معه جميع أصول الملحدين ، فكيف إذا انضم إلى ما قبله وما بعده ومالم نذكره من البراهين القواطع والآيات السواطع والحمد لله رب العالمين ، وجميع علوم البشر على اتساعها وتفوقها لا تفى بهدايتهم إن لم تستند إلى تعاليم الدين ، وإذا شككت فى هذا فانظر آثارها وما ترتب عليها من الشرور التى تفاقم شرها وتعذر حسمها وعظمت فجائعها وقلت رحمتها وعدلها ، وهى كلما اتسعت بوجهها ومخترعاتها ازداد ضررها العظيم واضمحل ما يرجوه العقلاء من خيرها العميم ، لأنها بنيت على الكفر والإلحاد ، والجحد لدين رب العباد ، فصارت ملازمة للشروط والفساد

(الوجه الحادى والخمسون)

قال الله تعالى : ﴿ إلهكم إله واحد ، فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾ فذكر وحدانيته التى هى أظهر الأشياء وأوضحها ، وان الناس انقسموا نحو هذه الحقيقة قسمين : قسم سد على نفسه باب الايمان بالآخرة فانسدت حوله أبواب الهداية فصارت قلوبهم منكرة لأظهر الأمور وأعظمها الذى وجوده وصفاته أوصاف واجبة لازمة يستحيل ضدها ، وحين أنكرت قلوبهم استكبروا عن الانقياد لربهم ظاهراً وباطناً فهم ملحدون متمردون وصفهم الإنكار والاستكبار ، ومن كان على هذا الوصف فانه قد برهن على مكابرته ومباهتته ولو جاءته كل آية وبرهان لم يؤمن ولم ينقد

وأما القسم الثانى : فهم المؤمنون بالآخرة الذين يعلمون أن البشر لم يخلقوا سدى مهملين ، بل خلقوا بالحق وللحق والجزاء بأعمالهم ، فهؤلاء قلوبهم معترفة بالله مومنة بوحدانيته : وحدانية الذات ووحدانية الصفات ، وهم خاضعون لله منقادون له ظاهراً وباطناً ، وبهذا الاعتراف والانقياد بلغوا

من الفضل والكمال البشرى ما شهد لهم به الواقع والتاريخ والمحسوس من الكمال العلمى والعملى والرشاد والإرشاد ، فالبصير العاقل بمجرد ما ينظر إلى الفرق بين الفريقين فى أحوالهم وأوصافهم وآثار أعمالهم يعترف ويستيقن بيقينهم وصدقهم وصدق ما بنوا عليه إيمانهم وأعمالهم ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ فى هذا الجانب الرسل العظام وأصحابهم الكرام وأئمة الهدى والأحبار وطبقات العلماء وأكابر العارفين وجميع طبقات المؤمنين الذين هم نور الوجود وحياة الدنيا والدين ، بهم قام الدين وبه قاموا ، وبهم صلحت الأحوال وهم أهل الهدى والسعادة والخير والفلاح والخير المتنوع من كل وجه . وفى الجانب الأخير : كل ملحد زنديق وكل جبار عنيد الذين قال الله فى وصفهم ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ، وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ فمن لم يؤمن بالله وبآياته فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴿ ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ، وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ﴾ جزاء لهم على استهانتهم بآيات الله واستهزائهم بها ، وبهذا الإنكار والاستهزاء سلبوا منافع عقولهم ومرجت أخلاقهم وسفهت آراؤهم وصارت البهائم أحسن حالة منهم حتى ولو كان لهم اذهان وذكاء وعقول كما قال الله عن أمثال هؤلاء : ﴿ وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾

(الوجه الثانى والخمسون)

ثبت فى الصحيحين أنه ﷺ قال : لا يزال الناس يتساءلون حتى يقولوا هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟ فمن وجد ذلك فلينته وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وليقل : آمنت بالله

وهذا مصداقه ما وقع من ملاحدة الماديين الذين لا يزالون يخوضون

فى مادة المخلوقات ولهم نظريات متنوعة كلها خاطئة لأن مبناها على الخرص والظن الذى لا يغنى من الحق شيئاً بل على خلاف المعلوم شرعاً وعقلا وفطرة فيتكلمون فى علل الموجودات علة بعد أخرى ولم ينفذوا منها إلى موجدها وخالقها بل أطلق عليه كثير من هؤلاء المتجرئين أنه علة العلل، فقطع النبى ﷺ بهذا الكلام الصادق الحكيم بكذبهم ونبه على جهلهم وجراءتهم، وأرشد المؤمنين إلى قطع هذه الشكوك والتشكيكات بالانتهاء والوقوف على أن جميع الموجودات كلها تنتهى إلى موجد واحد أحد فرد صمد الأول الذى ليس قبله شىء الموجد لكل شىء وأمر بالتعوذ من الشيطان الذى يدفع إلى القلوب المريضة هذه الشكوك والأسئلة الفاسدة وبالايمان بوحدانية الله تعالى وانه ليس له مثيل ولا نديد ولا مشارك فى شىء من كماله. وبما أرشد إليه ﷺ يندفع ما قاله الملحدون ويبطل ما ذهب إليه الماديون المتخرصون الذين ينكرون ما لا يعلمون بل يجحدون ما هم به مستيقنون وما زال الشيطان يزين لهم الشكوك والتشكيكات حتى غمرهم الضلال فهم فى غيهم يعمهون

(الوجه الثالث والخمسون)

أن هؤلاء الملحدين ما زال بهم إلحادهم وغرورهم وضلالهم حتى زعموا أن الإنسان سيعلم كل شىء ويقدر على كل شىء ووصفوه بأوصاف الرب وهذا أمر لم يصل إليه أحد من بنى آدم إلا هؤلاء الزنادقة الذين لم يخجلوا من مكابرة المحسوسات ومباهتة المشاهدات، فان كل أحد يعلم حق العلم أن الانسان ناقص من كل وجه وان ما به من علم وقدرة فبتعليم الله واقداره وان الله قد جعل لعلم الإنسان وقدرته حداً لا يتجاوزه ولا يمكن أن يتجاوزه لأنه فى طور البشر فكما أن الله هو الذى خلقه ولم يكن شيئاً مذكورا فهو الذى أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً وجعل له السمع والبصر والفؤاد وآلات العلم وأسباب القدرة البشرية. وأما القدرة الربانية والعلم

الإلهى فمن زعم أن أحداً من الخلق يشارك الله فى شىء منها فهو مبرسم مجنون وإنما اغتر ضعفاء العقول بما شاهدوه من معلومات البشر ومقدوراتهم ومخترعاتهم حتى أدهشتهم وجزموا أنهم أدركوها بحولهم وقوتهم وأنه ليس لقدرة الله فيها أثر ولا لتعليمه لهم فيها أثر فالله خلقكم وما تعملون والله وحده الذى علم الإنسان ما لم يعلم ، فما حصل من قدرة البشر فباقداره ، وما حصل لهم من علم دينى ودنيوى فبتعليمه . ومع ذلك فعلومهم وقدرهم مهما بلغت وترقت فانها تضمحل إذا نسبت إلى علم الله وقدرته ، ولهذا قال الرسل والملائكة الذين هم أعلم الخلق « لا علم لنا إلا ما علمتنا » وقال موسى للخضر حين رأى عصفورا نقر بمنقاره من البحر : ما نقص علمى وعلمك وعلم سائر الخلق من علم الله إلا كما نقص البحر من نقرة هذا العصفور . وفى الصحيح مرفوعاً ان الله يقول « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فاعطيت كل انسان منكم مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا غمس فى البحر » فتباً لمن زعم مشاركة المخلوق الضعيف القاصر من جميع الوجوه للرب العظيم المتفرد بالكمال من جميع الوجوه ، وما أعظم جهلهم وضلالهم وعنادهم وجراءتهم والله تعالى للطاغين بالمرصاد

(الوجه الرابع والخمسون)

أن يقال لهؤلاء الملحدين ، ما قاله الله لأخوانهم المكذبين ، الذين هم دونهم بدرجات مبطلا كل احتمال يوجه للقدح فى الرسول وفيما جاء به لقوله تعالى ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون﴾ إلى آخر الآيات هل هذا الرسول محمد ﷺ الذى جاء بالقرآن العظيم وبالشرع المبين شاعر أو كاهن أو متقول أو ساحر أو ما أشبه ذلك مما تضاربت به أقوالهم أو هو أصدق الخلق وأبرهم وأنصحهم وأعلمهم وأخشاهم لله وأجمعهم لكل فضيلة وأبعدهم من كل رذيلة كما أجمع على ذلك كل من عرفه من مؤمن وكافر

وهذا هو الواقع ، أم الذى أوجب لهم الرد والتكذيب أحلامهم وعقولهم فبئست الأحلام والعقول التى تجحد أكبر الأشياء وأوضحها وتكذب بالحق وتنهج المناهج الباطلة وترضى لأنفسها بالشرك والاستكبار ؟ فعقول وأحلام هذه آثارها مسلوبة النفع مكفول لها الشر والضرر ، أم الذى حملهم على هذا التكذيب لا حد له ولا يتورع صاحبه عن محرم ولا يمتنع عن جريمة . والطغيان مرد لأصحابه مهلك لهم لا محالة . أم يقولون انه ﷺ تقوَّل هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين ، وهذا التحدى قائم من حين نزله الرب العظيم إلى أن تقوم الساعة لم يستطع ولن يستطيع كل منكر له مكذب له أن يأتى بمثله من جميع الوجوه اللفظية والوجوه المعنوية . أم الذى حملهم على التكذيب والاستكبار أنهم مخلوقون من غير شيء بل دفعتهم الطبيعة وأوجدتهم المصادفة ، فهذا قول السخف والجنون والمكابرة المعلوم بطلانه بالضرورة من كل عاقل ، أمْ خلقوا السموات والأرض وما فيها من العوالم التى لا يعلمها إلا الله ، فانهم مع الناس يعترفون أنهم أضعف شيء وأعجز شيء أمْ عندهم خزائن رحمة ربك يعطون من شاءوا ويمنعون من شاءوا ويحكمون بما شاءوا ، فهم مسيطرون على الملك والمملكة ، كل هذا يعترفون ببطلانه فهم يعترفون أنهم فقراء مماليك لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا ولا دفعا للمكاره ولا جلبا للمصالح ، أم الذى حملهم على هذا البهت والتكذيب الكيد للرسول ولدينه ونصر باطلهم حتى بالطرق التى يعرف كل عاقل بطلانها ، وهذا هو الواقع ، وان الذى ينتصر للباطل وقد صمم على ذلك لو جاءته كل آية لم يؤمن ولم يهتد ، لأنه وطن نفسه على نصر الباطل ومقاومة الحق ، أم الذى حملهم على ذلك أن لهم إلها غير الله له من أوصاف الربوبية والإلهية ما يستحق به أن يعبد مع الله ويرد الحق لأجله ، فسبحان الذى اعترفت المخلوقات بعظمته وسلطانه عما يشركون ، فهو الإله الحق المبين الذى له جميع أوصاف الكمال ، وبيده التدبير للعالم العلوى

والسفلى الذى لا يستحق العبادة إلا هو ، والذى لا يأتى بالحسنات والخيرات إلا هو ، ولا يدفع السوء والسيئات إلا هو ، الذى ليس له ند ولا كفو بوجه من الوجوه ، فذكر تعالى كل احتمال يوجهه أعداء الرسول إلى رسالته ورد ما جاء به وأن ذلك باطل قد أبطلته العقول السليمة والفطر المستقيمة . وهذه الاحتمالات التى ذكرها الله عن أولئك قد قالها هؤلاء الملحدون الماديون من غير حياء ولا خجل ، تشابهت قلوبهم فى الكفر فتشابهت أقوالهم ، فلا دين ولا خلق ولا عقل ولا حياء من الخلق فى هذه الجراءات والعظائم والمنكرات التى قالوها ، فلم يبق إلا أن يعذّبهم الله ، قال الله تعالى فى آخر هذه الاحتمالات : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ﴾

(الوجه الخامس والخمسون)

أن يقال لهم : من الذى خلق الأرض والسموات والشمس والقمر والكواكب وجميع ما بث فيهما من دابة ، والذى أنزل من السماء رزقاً فأنبت به من كل زوج كريم متاعاً للعباد ولأنعامهم ، ومن الذى أحكمها غاية الإحكام ، وأودع فيها من بدائع حكمته ولطيف صنعته وأنواع جوده وكرمه ورحمته ، وجعلها أدلة وبراهين على وحدانيته وقدرته وعظمته ، ومن الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وكمل ظاهره وباطنه بالقوى المتعدّدة التى يحتاج إليها ، وعلمه كيف يهتدى إلى مصالح دينه ودنياه ، فعلمه البيان العلمى والبيان اللفظى والبيان الرسمى حتى تم له من الخير والصلاح والهدى ما لم يتم لغيره ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض يستدل بآياتها ويستخرج منافعها ويستدر خيراتها ؟ فان قالوا : هذا عمل الطبيعة ، وهذا فعل المصادفة فقد برهنوا على حماقتهم وجهلهم الذى لم يبلغه ضلال أحد ، فأى عمل للطبيعة التى توجب هذه الآثار العظيمة ؟ وأى أثر جعلها تعمل هذه الأعمال ؟ وأى عقل وفكر هداها إلى هذه الأمور ؟

أما أهل العلم والبصائر والألباب ، بل وجميع من له نوع من العقل ، فسيقولون : هذا تقدير العزيز العليم ، وهذا صنع الله الذى أتقن كل شىء وأحسن خلقه ، بديع السموات والأرض وهو العزيز الحكيم

(الوجه السادس والخمسون)

قد شاهد الخلق من جزاء الله للطائعين ، وهم الرسل وأتباعهم ، وعقابه للعاصين المكذبين له ولرسله ، آيات بينات وبراهين قاطعات شاهدوها رأى عين ، ومن لم يشاهدها فقد تناقلتها القرون قرناً بعد قرن وتواترت تواتراً لم يتواتر له نظير من كل وجه ، فمن الذى أرسل الطوفان العظيم الذي غشى الأرض والجبال وأهلك الله به المكذبين لنوح أجمعين ونجاه ومن معه فى الفلك المشحون ؟ ومن الذى أرسل على عاد الريح العقيم ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، ونجى الله من هذا العذاب هوداً ومن معه من المؤمنين ؟ ومن الذى أرسل الصيحة والرجفة على ثمود فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، ونجى الله صالحا ومن تبعه من المؤمنين ، ومن الذى جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، وقلب على قوم لوط ديارهم ، وأهلك قوم شعيب بعذاب الظلة ؟ ومن الذى فلق البحر حتى صار اثنى عشر طريقاً وعبره موسى وقومه ناجين ، وأهلك الله فرعون ومن معه أجمعين ؟ ومن أيد موسى بالعصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم ، وفجر له الحجر اثنتى عشرة عينا قد كل علم أناس مشربهم ، وأعطاه من الآيات ما فيه بلاء مبين ؟ ومن الذى أعطى عيسى آيات بينات مشاهدات جعله يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموت بإذن الله ؟ ومن الذى أيد محمدا ﷺ بالآيات البينات والنصر العظيم ، وشق له القمر ، وسلم عليه الشجر والحجر ، وكم أجاب الله دعوته فى إنزال الغيث وإمساكه ، وفى شفاء الأمراض المتنوعة ، وأنبع الماء من بين أصابعه فروى الخلق الكثير ، وبارك فى الطعام الذى باشره حتى أشبع

الخلق الكثير ، وعصمه من الناس وقد تكالبوا عليه من كل جانب ، وحفظه وحفظ ما جاء به ؟ فبعض هذه الآيات توجب لكل منصف أن يعترف بوحدانية الله وكماله وصحة ما جاءت به الرسل وبطلان ما ذهب إليه أعداء الرسل فى كل زمان ومكان . وذلك أن الباطل يعرف تارة بتصويره وتقريره وببيان أدلته الواهية وشبهه الساقطة ، وتارة يعرف ببيان الحق ووضوح براهينه السمعية والعقلية المشاهدات والمحسوسات والمتواترات . فاذا علم الحق علم أن ما سواه باطل ، فماذا بعد الحق إلا الضلال . فانى يصرف الملحدون ، وإلى أى شىء يذهبون ؟ والحمد لله على عافيته من هذا البلاء العظيم المفضى إلى العذاب الأليم

(الوجه السابع والخمسون)

أن الملاحدة يتشبثون لتأييد باطلهم بشبه باطلة تروج على من لا بصيرة له ، ويروجها المأجورون من الزنادقة المنتسبين للإسلام ، يقولون : انظروا إلى حال المسلمين وما هم عليه من الضعف ، وأنهم متأخرون فى أمور الحياة ، والذى أخرهم دينهم . فيروجون هذا من وجوه متنوعة ، وهذا مما يعلم أن المستدل به مبطل ، وذلك أن الواجب أن تنظر إلى الدين الاسلامى فى نفسه وما هو عليه من الإحكام والحسن العظيم ، وما فيه من الهدايات إلى كل خير والذود عن كل شر وضرر . وتنظر أيضاً إلى حالة القائمين به المنفذين لتعاليمه وأحكامه فى أنفسهم وفى العباد كما كان عليه المسلمون فى الصدر الأول ، فانك ترى فيه ما يبهج الناظرين ، وتقوم به الحجة على المعاندين . وأما النظر إلى المسلمين التاركين لهدايته وإرشاده وتعاليمه العالية المنحرفين عنه من وجوه كثيرة ، فهذا ظلم ووضع للشىء فى غير موضعه ، فكما لا يقدح ولا يضر العلوم النافعة إذا انتسب إليها وادعاها من لم يتصف بها ولا يحتج بحالهم على ذم العلم ، فهذا أبلغ وأولى ولهذا كان الوسيلة الوحيدة إلى عود المسلمين إلى عزهم ومجدهم وكمالهم عودهم إلى دينهم الصحيح وتمسكهم بإرشاداته الدينية والدنيوية

﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ، واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فحال المسلمين اليوم فى تفرقهم وتشتتهم وتركهم جمهور مقومات دينهم حتى انحلوا وضعفوا صار فتنة للكفار والمنافقين ، وحجاباً حائلا وشبهة لمن يريد التلبيس فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم

(الوجه الثامن والخمسون)

قال تعالى : ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ وهذا أمر مشاهد محسوس ، أكثر أهل الأرض ضلال منحرفون دعاة إلى الضلال بأنواع الدعايات التى نهايتها أن تصل إلى هذا الذى ذكره الله : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ . فجميع ما يحتجون به على باطلهم ظنون خاطئة وتخرصات ونظريات فاسدة . واعتبر ذلك بنظريات علل الوجود التى لايزالون يحدثون عنها بأحاديث متناقضة ولا يزالون يحدثون نظريات وتجربات فى علة العلل فيبطلونها لأنه محال أن يستقر لهم قول صحيح فى ذلك حتى يؤمنوا بخالق الوجود وموجد العلل والمعلولات والقادر على كل شيء الذى جميع الذوات والعناصر والأسباب والمسببات كلها منقادة لمشيئته وحكمته ، ليس لها من الأمر شيء ، وإنما هو حكيم فى وضعها مواضعها وتنزيلها منازلها ، وكذلك اعتبر هذا بخرصهم الباطل وقولهم بشمول الترقى لكل موجود عموماً وللانسان خصوصاً فى أخلاقه ودينه وآدابه وأعماله وصناعته ، حتى أخذها المغترون عنهم قضية مسلمة ، وهى لا تحتاج إلى نظر كثير ، بل يعلم بالبداهة والضرورة أن الترقى إنما هو فى الأوقات القريبة فى علوم الصناعات والمخترعات ، وبهذا اغتروا وغروا غيرهم

أما الترقى فى الأفكار الصحيحة والعلوم الصادقة النافعة والأخلاق الفاضلة فانها هبطت هبوطاً لا يمكن التعبير عنه ، وإذا أردت أن تعرف ذلك فينا نخذ نموذجاً من الأمثلة وقس أفكارهم وعلومهم وأخلاقهم بالأفكار

الراقية والعلوم الصادقة والأخلاق الفاضلة ، مثال ذلك أن أفكار الماديين حصروها فى المادة ولم يلتفتوا بالكلية إلى غيرها ، فأدركوا منها ما وصلت إليه أفكارهم ، فهذه أفكارهم فى أمور ضيقة أوجبت لهم جحد ما سواها وضيقت علومهم وأكسبتهم الشقاء العاجل والآجل . وأما الأفكار الدينية فان أهل الدين الصحيح استعملوا أفكارهم فيما هيئت له وخلقت له ، علموا أن الله خلقهم لمعرفته وعبادته وحده لا شريك له وأنهم إذا قاموا بذلك أتم الله عليهم نعمته وأسعدهم سعادة أبدية وفلاحاً دائماً . ومع ذلك فقد سخر لهم ما فى السموات والأرض وأدرّ عليهم الأرزاق ليتوصلوا بها إلى المقصود مما خلقوا له فيصلح دينهم ودنياهم وليحيوا فى هذه الدار حياة طيبة ، فبالله عليك هل تنسب تلك الأفكار الدنية إلى هذه الأفكار الجليلة العلية ؟ وقد ترتبت علوم الفريقين على هذه الأفكار المتباينة ، فالماديون قصروها على علوم المادة فتم لهم منها ماتم ، والمؤمنون عرفوا الله بأسمائه وصفاته وأحكامه ودينه ظاهره وباطنه ، فعلومهم الجليلة لا يمكن أن يقاس بها أو يقاربها شيء من العلوم الأخر . ومع ذلك فقد شاركوا علماء المادة فى علمهم الذى يحتاجون إليه فى إصلاح دينهم ودنياهم ، فان دينهم قد جاء بالإصلاحات المتنوعة كما تقدم

وأما الأخلاق فأهل الإلحاد والمادة انحلت منهم الأخلاق انحلالا ذائباً حتى صاروا كالبهائم بل أضل منها وأخس مرجت أخلاقهم وذهبت عهودهم واستباحت كل محرم وانطلقوا فى شهوات الغى لا يثنيهم عنها دين ولا خلق ولا حياء من الله ولا من خلقه كما هو معروف من أحوالهم ، فذهب دينهم ولم تستقم دنياهم فيعيشوا فيها عيشة طيبة هادئة ، خسروا الدنيا والآخرة ، وأما المؤمنون فان أخلاقهم كل خلق مستحسن عقلا وشرعا وعرفا ، وهى الأخلاق التى تجعل صاحبها فى المراتب العالية والأوصاف الجميلة الحميدة كما هو معروف منهم مشاهد

(الوجه التاسع والخمسون)

أن الشريعة الإسلامية قد حكمت على الخلق أحكاماً جميلة لا يمكن إصلاح الأمور إلا بها ، لأنها توجه الظواهر والبواطن إلى الخير وتذودهم عن الشرور ، أما باطنها فلأن المتصفين بها الملتزمين للدين على وجهه قد توجهت قلوبهم إلى القيام بالدين واعتبروه أفرض الفروض وأوجب الواجبات ، راجين بذلك فضل الله وثوابه ، محتسبين خيره . ومن خرج عن هذا منهم فقد جعلت له الشريعة من الحواجز والروادع والحدود ما يعينه على التزامه فى عقائده وأخلاقه وآدابه وحقوقه الجميلة المعترف بحسنها عند العقلاء . وذلك السبيل الوحيد إلى اصلاح المجتمع واستقامة الأحوال وسلوك الصراط المستقيم . وأما القوانين الملحدة فان غايتها إذا قويت أن تسيطر على بعض الظواهر ، وأما الأخلاق والبواطن والإيمان والأمن على الأرواح وعلى الأموال والحقوق فهيهات أن تقوم بها قوانين إلحادية تهدف وتقصد أن يكون البشر كالبهائم إباحيين فوضويين فى أفكارهم وإرادتهم ومراداتهم ، وتفضى إلى الشرور وتنتهى إلى الحروب ، وهذا أمر لا يرتاب فيه عاقل ، ومما يؤيد هذا أن الأحكام الدينية التى أرشد إليها الشارع باقية ببقاء البشر ، صالحة لكل زمان ومكان ، بل لا تصلح الأمور إلا بها ، وأما قوانين البشر وأنظمة السياسيين التى لم تبن على الدين فانها موقتة بحسب ما يرون من مصالحهم ومضارهم فى الوقت الذى هم فيه ، ثم تتغير وتتبدل وربما غيرها واضعوها لأنها من صنيع البشر وصنعهم كله ناقص ، والشريعة الإسلامية من صنع العزيز الحكيم العليم الذى أحاط بكل شىء علما وعلم مصالح العباد فى كل الأوقات والأحوال فشرعها صالحة لهم موافقة لصالحهم دافعة لمضارهم ، وهذا من أعظم البراهين على إبطال جميع الأصول والأنظمة والأساسات المناقضة للدين ، والله أعلم

واعلم أنه لايوجد قانون صحيح أخذت به الأمم إلا وهو فى الدين على أكمل ما يكون وأصح ما يكون وأسلم ما يكون من النقص ، فليأت المرتاب بمثال واحد خارج عن هذا الأصل إن كان صادقاً

(الوجه الستون)

قال الله تعالى : ﴿ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ﴾ فذكر جل جلاله أمرين عظيمين يمتنع ويستحيل وجود الكفر مع معرفتهما إلا من معاند ومكابر فلا عبرة به ولا حيلة فى هدايته :

أحدهما : آيات الله التى تتلى على العباد وفيها الآيات البينات والحجج القاطعات المتنوعة من كل وجه ، فمن عرف القرآن وتأمله ورأى اتفاقه وعدم اختلافه وأحكامه وبلاغته وصدق ما أخبر به من الغيب والشهادة وحسن ما شرعه وحكم به عرف أنه من عند الله وأن البشر بل الانس والجن والخلائق لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

وكذلك من عرف الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم وما هو عليه من الكمال المتنوع الكامل فى روحه وخلقه ، الكامل فى عقله ومعرفته ، والكامل فى إنسانيته بجميع مظاهرها ، الذى اجتمع به الكمال الإنسانى من كل وجه ، من عرفه على هذا الوجه عرف وتيقن أنه رسول الله حقاً ونبيه صدقاً وامتنع مع ذلك أن ينكر رسالته بل تحقق صدقها وبطلان ما ناقضها والله أعلم . وقال تعالى : ﴿ وكيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ۞ قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ﴾ الآيات ، فتعجب تعالى ممن يكفر به وهو يشاهد — وكل أحد له عقل يشاهد — أنه الخالق للموجودات عموماً وللآدمى خصوصاً الموجد له بعد العدم المتصرف فيه بالأحكام القدرية والأحكام الشرعية وأحكام الجزاء فكيف يستسيغ أحد بعد هذا البرهان أن يعدل إلى الالحاد والكفر

والإنكار ، أفى الله شك فاطر السموات والأرض وهو الذى يطعم ولا يطعم وهو الغنى بذاته والكون كله فقير إليه بذاته من كل وجه .

(الوجه الحادى والستون)

أن هؤلاء الملاحدة الماديين فسدت عقولهم — مداركها وأعمالها وسلوكها — وذلك أن صحة العقل أن يدرك الحق وأن يعمل به ويسلك الطريق النافع ، وهؤلاء أنكروا وجحدوا الحق ، فإن الله هو الحق وقوله حق ودينه حق ووعده ووعيده حق ، قامت على ذلك البراهين القاطعة الكثيرة التى هى أقوى البراهين وأصدقها ، وشهد بذلك لنفسه وشهد به خيار الخلق من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم ، وشهد به جميع العقلاء ، وعليه فطرت الخليقة . فمن أنكر هذا فهو إما معاند مكابر قد فسد سلوكه وعمله وقصده التى هى ثمرة العقل ، وإما مشتبه عليه الأمر فهذا أعظم الناس على الأطلاق جهلا وضلالا لأنه ضل بأوضح الأشياء واشتبه عليه الليل والنهار والضياء والظلمة ، وكل من فسد إدراكه أو سلوكه أو كلاهما فإن أقواله لاغية باتفاق العقلاء ، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية وكل من يقبل قول هؤلاء الملحدين فهو أحد رجلين : إما جاهل بحقيقة أمرهم ، وإما ظالم يريد علواً فى الأرض وفساداً ، أو جامع بين الوصفين . وهذه حال أتباع فرعون الذين قال الله فيهم ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ ، وحال القرامطة مع رؤسائهم ، وحال الكفار والمنافقين فى أئمتهم الذين يدعون إلى النار ويوم القيامة لاينصرون اه .

(الوجه الثانى والستون)

أن قول هؤلاء الملحدين الماديين إذا تصور على حقيقته جزم العاقل ببطلانه وقال : كيف اشتبه هذا على أحد ؟ ويتعجب من اعتقادهم إياه قال شيخ الإسلام : ولا ينبغى للإنسان أن يعجب ، فما من شىء يتخيل من

أنواع الباطل إلا وقد ذهب إليه فريق من الناس . ولهذا وصف الله أهل الباطل بأنهم أموات ، وأنهم صمٌ بكم عمى ، فهم لايفقهون ولا يعقلون ، وأنهم لفى قول مختلف يؤفك عنه من أفك ، وأنهم فى ريبهم يترددون ويعمهون . انتهى كلامه . فصورة قول هؤلاء الملاحدة أن جميع الموجودات وجدت بغير موجد ، وجدت مصادفة من طبيعة عمياء لا علم لها ولا قصد ولا شيء من الشعور العلمى ولا الشعور الإرادى ، فلو صورت المحالات والممتنعات بأوضح من هذا التصوير وأشده مكابرة للعقول لم يهتد المصور إلى تعبير عن شيء ممتنع أبلغ من هذا المنطق الجنونى ، وهذا من جزاء من من جاءه الحق فرده ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة .

(الوجه الثالث والستون)

أنه قد تقرر فى الفطر والعقول أن الله له الكمال المطلق والحمد المتنوع . وأنه أكبر وأعظم وأعلى وأعلم من جميع الموجودات ولا تنسب إليه بوجه من الوجوه ، وهذا متقرر مستقر فى قلوب جميع أهل الأديان وغيرهم من جميع العقلاء المعترفين بوجود الله وأنه ليس كمثله شيء فى جميع أوصافه وأفعاله ، ولم ينكر هذا إلا فرقة وشرذمة من زنادقة الفلاسفة الدهريين المارقين من الديانات والمعقولات ، فجميع أجناس البشر معترفون لله تعالى بهذه العظمة ، وإن اختلفت طرائقهم وتباينت دياناتهم وتنازعوا فى الأصول أو فى الفروع ، فهذا الأصل لاينكره منهم منكر ، ولا يجحده إلا المعاندون الذين خرجوا من الشرع والعقل والفطرة ، وإن كان لهم عقول وأفئدة أدركوا بها ما أدركوا من علوم المادة حيث وجهوا جميع قواهم ومجهوداتهم إليها ، ولكنهم لم تغن عنهم هذه العقول شيئاً فى أنفع الأشياء ، بل كانت حجة عليهم ، فما علموه من علوم الكون حجة عليهم فيما أنكروه مما هو مقصود أصلى ، وعلوم الكون كلها وسيلة إليه ، فانقطعوا فى الوسائل عن المقاصد ، وبالدليل عن المدلول ، وبالكون عن المكوّن ، وبالصنعة عن صانعها ، وبقوا فى غيهم وضلالهم وطغيانهم يعمهون

والله تعالى له المثل الأعلى وهو معطى الموجودات جميع ما فيها من القوى والإدراكات والصفات ، وهو أحق بالكمال من كل موجود ، فالذى علم الإنسان ما لم يعلم من العلوم الواسعة المتنوعة ، وأقدره على كثير من مواد الطبيعة وعناصرها وجعل له السمع والأبصار والأفئدة ، هذه الأمور وغيرها لم تحصل للبشر إلا بإيجاده وإمداده وتعليمه وتسخيره ، أفبهذه النعم الجليلة والفوائد السابغة يكفر به الكافرون ، ويجحده الجاحدون ﴿ فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾

(الوجه الرابع والستون)

أن كل برهان ودليل أبطل الله به الشرك وقرر به التوحيد فهو برهان على بطلان الإلحاد والجحود ، لأن المشركين يعترفون بالله ويعلمون أنه الخالق الرازق المدبر ، ولكنهم يشركون فى عبادتهم فيعبدون الله ويعبدون غيره ، فأبطل الله شركهم بأمور كثيرة :

منها : أن اعترافهم بتوحيد الربوبية يوجب لهم أن يقوموا بتوحيد الإلهية والعبادة

ومنها : أن الله تعالى كما هو المنفرد بالنعم وجلب الخيرات ودفع السوء والسيئات ، فهو الذى يجب أن يعبد وحده لا شريك له ، ويحمد ويشكر ويثنى عليه

ومنها : أن شواهد الفقر والحاجة على جميع المخلوقات ظاهرة من كل وجه ، فهم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد ، فيجب أن ينزلوا فقرهم وفاقتهم وضرورتهم بمن لا يأتى بالايجاد والأمداد إلا هو الغنى بذاته عن جميع مخلوقاته

ومنها : أن من سواه لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا ، لا يدفعون المكاره ولا يجلبون المحابّ ،

ومن كان على هذا الوصف فعبادته باطلة ، فإذا بطل الشرك بالله وتقرر وجوب الاخلاص لله ثبت وحدانية الله وتفرده بكل كمال ، واضمحل قول الجاحدين كما اضمحل قول المشركين

(الوجه الخامس والستون)

أن البراهين الدالة على رسالة محمد ﷺ ورسالة سائر الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من أكبر البراهين على إبطال قول الملحدين وآيات الرسل عموماً ومحمد خصوصاً لا تعدّ ولا تحصى ، متنوعة من كل وجه ، توجب العلم الضرورى بصدقهم وصحة ما جاءوا به ، وهؤلاء الملحدون أكبر أعداء الرسل فى كل زمان ومكان ، فلا يجتمع الإيمان بالرسل مع اعتناق مذهب الماديين المنافى للرسالة وللعقول والفطر . والله أعلم

(الوجه السادس والستون)

البراهين الدالة على البعث كلها تبطل أصول الملحدين ، وقد استدل تعالى على البعث بقوله : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وبأنه كما بدأ الخلق من العدم فانه سيعيدهم للجزاء ، وباحياء الله الأرض بعد موتها ، واستدل بكمال قدرته ، واستدل بحكمته ، وأنه لا يليق به أن يترك الخلق سدى : لا يؤمرون ولا ينهون ، ولا يثابون ولا يعاقبون ، وبغير ذلك من البراهن ، وهذه امثلة ونماذج لهذه الأصول الثلاثة : التوحيد ، والرسالة ، والبعث ، وكل واحد من هذه الأصول لو بسطت براهينه لبلغت شيئاً كثيراً ، فكل واحد منها قد وصل إلى علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، وهى تهدم أساس التعطيل والإلحاد ، وتوجب على العباد الاعتراف بما خلقوا له من الإيمان بالله وكتبه ورسله ، وعبادته وحده لا شريك له ، ومن المعلوم أن الماديين الملحدين يباهتون وينكرون ذلك كله

(الوجه السابع والستون)

قال الله تعالى : ﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾

هذه الآية دلت على كمال علم الرسول محمد ﷺ ، وكمال تعليمه للخلق ، وكمال تنفيذه للهدى والصلاحُ الذى جاء به ، فهل فى إمكان أحد من البشر - الأولين والآخرين - وجود هذه العلوم العالية النافعة الواسعة فى شخص واحد ، وحصول التعليم منه لأناس كانوا قبل ذلك فى غاية الجهل والضلال المبين ، حتى انتقلوا من هذا الجهل والضلال إلى العلم الواسع والهدى المتنوع ، ثم مع هذا العلم والتعليم الممتنع وجوده - أو وجود مايقاربه - فى شخص واحد نفذ ﷺ فى الخلق هذه التعاليم والإصلاحات الدينية والدنيوية فاستقامت به الأمور وصلحت الأحوال ، إن فى ذلك لعبرة المعتبرين ، وآيات لأولى الألباب ، حيث بعث هذا النبى الأمى الذى لا يقرأ كتاباً ولا يخط بيمينه ولا جالس أحداً من العلماء السابقين فتعلم منهم ، فجاء بعلوم الأولين والآخرين وبما فيه صلاح الدنيا والدين ، فزالت به الجهالات والضلالات ، وتقشعت عن القلوب به الظلمات ، وحصل كمال الرشد والهدى ، وزال عن أمته أسباب الهلاك والردى ، شهد بهذا الأولياء والأعداء ، واتفق الخلق على أنه لم يوجد أحد يقاربه من العظماء ، وكيف يقاربه أحد أو يدانيه وكل خصلة من خصال الكمال له منها أعلاها وأرفعها ، وبه كملت العقول والبصائر ، ولا يقدح فى هذا إلا كل مباهت مكابر ﴿ والذين يحاجّون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾

(الوجه الثامن والستون)

لما علم المستعمرون الملحدون أن الإسلام الحقيق والدين الإسلامى

أقوى حصن وأعظم سلاح لمقاومتهم ، وقد عرفوا ذلك من قديم الزمان ، وحملوا حملات متنوعة ، فرجعوا على أعقابهم مهزومين لم ينالوا خيراً ، وعرفوا حق المعرفة أنه من المحال السيطرة على الاسلام وعقائده وأخلاقه ، فعملوا مؤامرات واسعة متنوعة ، وساعدوها بالقوة ، ودرسوا الإلحاد فى المدارس التى اغتفلوا أهلها ، وذهبوا يهجنون جميع تعليمات الإسلام وما يدعو إليه من الأخلاق وما يحكم به من الأحكام ، وقالوا : إنها رجعية ترجع بالناس إلى الورى عن التقدم المطلوب ، وأوجدوا لهم من أرباب المطامع المأجورين ومن البلهاء المغرورين من يستعينون به على مطلوبهم والتزهيد فى الدين من كل وجه . ولكن ـ ولله الحمد ـ قد علم أهل البصائر مقاصدهم وعرفوا الخَوَنة ممن ينتسب إلى ملة الإسلام وهو أعظم عدو للإسلام فى صورة صديق ، وبرهن العلماء العارفون أن كل ما قيل فى توهين الدين وتخديره فهو باطل ، وأن القائلين بذلك زنادقة منافقون يقولون ما يعلمون خلافه ، وأن السبيل الوحيد إلى الصلاح والتقدم الصحيح النافع من جميع الجهالات هو الأخذ بتعاليم الإسلام بعقائده وأخلاقه وأعماله وأحكامه ، وأن البشر لا يمكن أن يحيوا حياة طيبة ويعيشوا فى الدنيا عيشة هادئة إلا بالدين ، وأن الإلحاد أعظم نكبة طرقت البشر ، وأن آثاره الشر الكبير والإباحية والفوضوية وتقويض دعائم العمران والسير إلى الهلاك والشقاء . فمتى رأيت من ينعق بذم الرجعية وذم كل قديم ويأمر بنبذ ذلك فاعلم أنه أحد رجلين : إما ملحد قصده بذلك التوسل إلى جحد أديان الرسل ونبذ ما جاءوا به ، وإما مغرور مخدوع مقلد لهم قد غرته هذه المدنية الزائفة وأعجبه رونقها وظن بجهله أنها شىء ، وهؤلاء كاذبون فى ذلك ، فان أقوال زنادقتهم الأولين عندهم بالمحل الأعلى ولا يكادون يخالفونهم ، ويعظمونهم أكبر مما يعظمون الأنبياء ، بل ليس للأنبياء فى قلوبهم شىء من التعظيم الصحيح ، وإذا أردت أن تعرف كذبهم بالبداهة فهل العلوم النافعة والأعمال الصالحة والعقائد الصادقة والأخلاق الفاضلة إلا وقد جاء بها الدين على أكمل

الوجوه وأحسنها وأنفعها ؟ وتتبع ذلك فى أصول الدين وفروعه وظاهره وباطنه ، هل تجده إلا مشتملا على كل خير ، هادياً إلى كل رشد وصلاح ، حاثاً على كل فلاح ؟

(الوجه التاسع والستون)

من محاسن الاسلام وقيامه بكل إصلاح أنه ليس عقائد وأخلاقاً فقط ، وإنما هو ـ مع ذلك ـ موجه وحاكم وصاحب دولة وجهاد ، فالدين الإسلامى بعقائده وأخلاقه وآدابه وتوجيهاته وحكمه وسلطته وحمايته الحقوق الخاصة والعامة كما هو مشروح مفصل من أكبر الأدلة على أنه تنزيل من حكيم حميد ، عليم بكل شىء ، إذ شرع لهم هذا الدين الذى لم يبق خيراً إلا دل عليه وحث عليه ، ولا شراً إلا حذر منه ، ولا حقاً إلا أقامه ، ولا عدلا إلا جعل له مسالك وطرقاً يقوم عليها . فهو دين ودولة وجامع بين مصالح الدين والدنيا وبين التسامح والتيسير وبين العزة والقوة والمقاومة لكل معاند محاد معاد للدين وأهله ، عكس ما نبزه الملحدون أنه دين بلا دولة وآخرة لا دنيا معها ، فانهم قالوا ذلك ليتوسلوا إلى تثبيط أهله عن مقاومة المعتدين ، وبذلك يمهدون الطريق للأعداء المستعمرين الظالمين ، فهؤلاء الذين قالوا ذلك كذبوا وظلموا وكادوا للإسلام وأهله وكانوا أجراء وسماسرة للأعداء ، والله أعلم

(الوجه السبعون)

أن من أكبر أسباب الإلحاد الاعراض عن علوم الدين ، وإلا فمن عرف ما جاء به الكتاب والسنة وعلم ما جاء به دين الإسلام ولو معرفة متوسطة استحال أن يقع منه الإلحاد جهلا وضلالا ، فان الدين بطبيعته وما اشتمل عليه من البراهين يضطر صاحبه إلى الإقرار والاعتراف بوحدانية الله وصدق رسله وبطلان ما ناقض ذلك ، فلا تجد ملحداً إلا معرضاً من أعظم الجاهلين أو معانداً عارفاً من أكبر المباهتين المكابرين

ومن المصائب الكبيرة أن كثيراً من العصريين ليس عنده بصيرة ولا معرفة بالدين لا قليلة ولا كثيرة ، وإنما عنده إقبال على الصحف المشتملة على الخير والشر ، وكثير منها تدعو إلى الإلحاد بأساليب وطرق متنوعة ، فتصادف هؤلاء الذين يظنون أنفسهم عارفين وهم من أجهل الجاهلين ، وتملأ أذهانهم من الآراء السخيفة والنظريات المخيفة ، وليس عندهم من العلم والدين ما يصدهم ويمنعهم من الاندفاع مع هذا التيار المادى ، وما أكثر الهالكين بهذه الطريقة ، وليس لهؤلاء دواء إلا الإقبال على معرفة الدين وعلومه وآدابه وأخلاقه ، فنسأل الله السلامة والعافية ، ولا يعرف الدين بتتبع أحوال من ينتسب إليه وهو منحرف عنه ، فان هذا من أعظم الظلم وأنكر المنكر ، وقد صار هذا المسلك طريقاً لأعداء الإسلام الظاهريين والباطنيين ، فقد حملوا الإسلام أوزار من ينتسب إليه من ملوك جائرين وأمراء مستبدين وأدعياء منحرفين عن عقائده وأخلاقه ومتفلتين عن أحكامه حتى صاروا أعظم حجاب للمغترين وأعظم حجة للمعاندين العارفين

وإنما الواجب معرفة الإسلام من منابعه وينبوعه الأصلى وهو كتاب الله وسنة رسول الله القولية والفعلية وعمل الخلفاء الراشدين والصالحين من أمة محمد ، فان هذا هو الدين ، وهو الأنموذج الصحيح لمن يريد الانصاف ، أما من يريد الاعتساف وقصده معروف فانه يزور على ضعفاء العقول والبصائر بهذه التمويهات ، وينسب إلى الدين ما هو منه برىء ، وإذا كانت فنون العلم ـ كالطب والحساب والهندسة وما أشبهها ـ لا يقدح فيها من انتسب إليها وهو جاهل بها ، فكيف بهذا الدين الذى تفرعت عنه جميع العلوم النافعة والمعارف الراقية والأخلاق العالية وقد ثبتت أصوله حتى كانت أثبت من الرواسى ، وأضاء نوره حتى أنار ما بين الخافقين ، واتسعت آفاق إصلاحاته حتى شملت إصلاح الأفراد والجماعات والحكام والمحكوم عليهم والظاهر والباطن والدنيا والآخرة . فتباً لمن قدح فيه بحال من ينسب إليه وهو أبعد الناس عنه ، سبحانك هذا بهتان عظيم

(الوجه الحادى والسبعون)

أن مدار هؤلاء الملحدين على تحكيم عقولهم وعرض العلوم والحقائق عليها ، فما وافقها قبلوه وما ناقضها نفوه وأنكروه ، فعارضوا بها عقول جميع العقلاء وعلوم الأنبياء وأتباعهم ، وعقولهم قد عرف فسادها وتناقضها وتهافتها ، فهذا الأصل الذى بنوا عليه كل شىء أصل منهار متهافت فى غاية الفساد والاضطراب ، وقد فتحوا به للناس المغترين بهم باب الفوضى فى الآراء والنظريات حتى صار كل طائفة بل كل شخص منهم يدعى أن الصواب معه والخطأ مع غيره ، ولهذا تجرأ كل جاهل على القدح فيما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب السماوية ، حتى امتلأت الدنيا من الإلحاد والدعوة إلى المادية المحضة ، واستجاب لدعوتهم رعاع الخلق الذين لا علم عندهم ولا دين ولا أخلاق ، وخيف أن يقع ـ ولا بد من وقوعه ـ ما أخبر به النبي ﷺ حيث ثبت عنه أنه قال « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض : الله الله . ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق » وصرنا فى وقت القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر من كثرة الإلحاد والدعوة إليه وكثرة المعارضات الباطلة والميل بالكلية إلى الدنيا وزخارفها ورئاساتها ، حتى صار كثير من الكتاب العصريين يدعون إلى عمارة الدنيا والاقبال بالقلب والقالب عليها ونسيان الآخرة ، ويحرفون لذلك نصوص الكتاب والسنة ، فانحرفوا بهذا انحرافاً عظيما وضلوا وأضلوا كثيراً وضلوا عن سبيل الله ، ولو أنهم دعوا الخلق إلى ما أمر الله به المؤمنين وما أمر به المرسلين بالأكل من الطيبات والتمتع المباح من الدنيا وطلبها الطلب الجميل والتوسل بذلك إلى المقصود الأعظم وهو إصلاح الدين والقيام بعبودية الله التى خلق الله لها الخلق وأن يجعلوا ما متعوا به من النعم معونة لهم على ما خلقوا له ، لكان خيراً لهم وأقوم وأصلح للعاجل والآجل ، ولنالوا السعادتين ، ولسلموا من الفساد وانهيار العقائد والأخلاق ، ولكنهم متعوا ونعموا وبطروا حتى نسوا الذكر

وكانوا قوماً بورا ، إنهم كانوا قبل مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون ﴿ أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ﴾ الآيات ، ولهذا نسأل الله العافية ، تجد أمثال هؤلاء الساقطين يتهكمون بالجزاء الدنيوى والأخروى ويسخرون من المؤمنين القائمين بواجباتهم الذين هم فى الحقيقة أعلى الناس علوماً وأخلاقاً وأعمالا ومقامات ، وهؤلاء المؤمنون لا يغبطون ما متع به هؤلاء الملحدون من أموال وأولاد ، ويتلون عند ذلك قوله تعالى ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون . ولا يحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير لأنفسهم انما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب أليم ، لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾

(الوجه الثانى والسبعون)

إذا أردت أن تعلم علم اليقين أن أهل الإلحاد ليس عندهم عقل كما لا دين لهم ، وأنه ليس عندهم إلا المكابرة والجحود فى قدحهم فى القديم أو العتيق أو ما أشبه ذلك من عباراتهم السخيفة كالرجعية وشبهها ، فاعرض نموذجاً من تفاصيل ما يدعو إليه الدين ويحث عليه وما يحذر عنه تعرف بها أن المنكرين لها فى فساد من عقولهم ، وانعكاس من آرائهم ، وسفاهة من علومهم وخسة من أخلاقهم ، وأن كل قول أو عقيدة أو خلق أو عمل ليس عليه أمر الدين فهو مردود شرعاً وعقلا وفطرة ، ليس هذا مجرد دعوى ، وإنما هو مما يتفق عليه العقلاء ، فالدين الاسلامى الذى هو دين محمد ﷺ وجميع الرسل يدعو إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم والآخر ، والاعتراف بوحدانية الله وتفرده بكل كمال ، وتفرده بالخلق والرزق والنعم الظاهرة والباطنة ، والقيام بعبودية الله ظاهراً وباطناً ، والتوجه إليه وحده ، وخوفه ورجائه وحده ، والإنابة إليه فى جميع النوائب والملمات ، والشكوى إليه فى كل المهمات ، والقيام بحمده وشكره ، واللهج بذكره

ودعائه ، والتعلق به وحده فى كل شىء ، وترك التعلق بالمخلوقين ، فهل هذا خير أم الكفر بالله والجحود والتعطيل لأوصافه وكفر نعمه والطغيان والاستكبار عن عبادته وتعلق القلوب بالمخلوقين رغبة ورهبة ورجاء كما هو حال الملحدين ؟

والدين الاسلامى يدعو إلى الصدق فى الأقوال والأفعال ، وإلى البر والنصح للخلق كلهم . والقيام بحق الوالدين والأقارب ومن للانسان بهم تعلق وصلة ، ومن لهم حق عليه ، ويأمر باقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج بيت الله الحرام والقيام بشرائع الدين ، وأهل الإلحاد يقولون ويفعلون ما يناقض ذلك

والدين الإسلامى يأمر بالعدل فى المعاملات كلها ، والقيام بالحقوق كلها ، وينهى عن الظلم فى الدماء الأموال والأعراض والوفاء بالعهود والعقود ، ومراقبة الله فى حال قيام العبد بها ليوفيها حقها ويبتعد عن شرورها ومفاسدها خوفاً من الله ورجاء لثوابه

وأهل الإلحاد يأمرون بضد ذلك ، وليس فى ضمائرهم خوف ولا مراقبة لله ، وإنما هى تشبه أفئدة البهائم بل أضل ، فحيث ما دفعتهم إلى الأغراض الخسيسة والظلم واغتنام الخيانات وتضييع الأمانات اندفعوا إليها ، ليس عندهم دين ولا خلق ولا مراعاة ذمة ، إنما هى الإباحية المحضة ، وليس عندهم خشية إلا من مخلوق أقوى منهم ، فهؤلاء كالأنعام بل هم أضل ، وهؤلاء لم تنفعهم إدراكاتهم ولا مشاعرهم نفعا يجدى

وبالجملة الدين الإسلامى يدعو إلى كل خلق جميل وعمل صالح وهدى مستقيم وطريق قويم وصلاح متنوع ، فكل من خالفه وقع فى ضد هذه الأمور الجميلة ، وسقط فى مهاوى الهلاك والأخلاق الرذيلة ، فلقد تعس وانتكس من عبر عن عقائد الدين وأخلاقه وأعماله التى لا حياة للوجود إلا بها بالرجعية ، والرجوع إلى القديم ، والعبارات الوسخة التى هى أكبر

معبر عن سخافة عقول معبريها وسقوطهم فى كل رذيلة وخلوهم من كل فضيلة ولقد قال إخوانهم السابقون عن القرآن ومن جاء به ﴿ إنْ هذا إلا أساطير الأولين ﴾ ، ﴿ إنْ هذا إلا سحر مبين ﴾ ، ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا ، أهذا الذى بعث الله رسولا ﴾ ، ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾

(الوجه الثالث والسبعون)

ذكرنا فيما سبق أن أعظم ما يبطل الإلحاد معرفة دين الاسلام والعمل به ، وأنه بطبيعته وبراهينه وآياته يضمحل معه كل باطل من كل وجه ، خصوصاً أقبح الباطل وأشنعه وأشده منافاة للعقل والدين وهو الالحاد ، وقد عرف أهله هذا منه وأنه لا بقاء له مع الدين فتوسلوا بتنحية الدين عن المتعلمين ، وأبعدوه عن المدارس ، فان لم يتمكنوا جعلوا التعليم فى الدين ضعيفاً أو اسماً بلا مسمى ، فهم عند التمكن ينحون الدين جملة ويدخلون فى تعليم المدارس أصول الالحاد فيخرج المتعلمون ملحدين صرفا ، فان لم يمكنوا من إدخال الإلحاد فيها اجتهدوا فى إضعاف علوم الدين ، واقتصروا على العلوم العصرية ليذهب من قلوب الناشئة حب الدين ويسهل توجيههم إلى نبذه والاستبدال به ضده ، فان البصيرة فى الدين إذا ضعفت ، والقلوب إلى غيره توجهت ، انهارت الأديان والأخلاق كما هو مشاهد معلوم فى كل المدارس التى على الوصف الذى ذكرنا ، فيتعين على المسلمين وعلى ولاة أمورهم أن يعتنوا غاية الاعتناء فى علوم الدين وأخلاقه ، فان هذا من أفرض الفروض ، وبه يحصل كل خير ويندفع أعظم شر ، فان الناشئين فى المدارس إذا خرجوا منها وقد تمكنوا من علوم الدين وصار عندهم بصيرة صحيحة فيه فانهم ينفعون أمتهم وينفعون غيرهم ، وإلا فليعلموا أنهم رعاة وكل راع مسئول عن رعيته ، فهم مسئولون عن الناشئة المتعلمين فى المدارس فاذا لم يثقفوهم ثقافة دينية صاروا أكبر سلاح للأعداء على أمتهم ،

فكيف إذا انصرفت قلوبهم عن الرغبة فى علوم الدين وأخلاقه إلى الاقتداء الضار بأعداء الاسلام فى علومهم وسلوكهم وعاداتهم فانه ما شاع الالحاد فى البلاد الاسلامية إلا بهذه الطريقة فكيف إذا نصرتها قوة الولاة وصاروا هم العون الأكبر لانحراف المدارس الابتدائية والثانوية والجامعات وطردوا عنها الدين أو أضعفوه ، فنرجو الله أن يوفق ولاة المسلمين المرجوع إليهم لهذا الأمر العظيم الذى خطره كبير وشره مستطيل ، وإلا فلا يلومن إلا أنفسهم إذا خسروا الدين والدنيا والله المستعان

(الوجه الرابع والسبعون)

قال شيخ الاسلام رحمه الله : الرب تعالى أعرف من أن ينكر وأعظم من أن يجحد ، ولهذا قالت الرسل لأممهم : أفى الله شك ؟ وهو الغنى بذاته عن جميع الموجودات ، فان افتقار كل ما سوى الله هو حكم وصفة ثبتت لما سواه ، فكل ما سواه ـ سواء سمى محدثاً أو ممكناً أو مخلوقاً أو غير ذلك ـ هو مفتقر محتاج إليه لا يمكن استغناؤه عنه بوجه من الوجوه ولا فى حال من الأحوال ، بل كما أن غنى الرب من لوازم ذاته ففقر الممكنات من لوازم ذاتها ، وهى لا حقيقة لها إلا إذا كانت موجودة ، فان المعدوم ليس بشىء ، فكل ما هو موجود سوى الله فانه مفتقر إليه دائما حال حدوثه وحال بقائه وهذا يوجب افتقاره إليه دائماً . انتهى

فعلم بهذا أن جراءة المخلوق الفقير على إنكار الرب الغنى القائم بنفسه القائم بكل موجود أو إنكار وحدانيته أو حق من حقوقه من أسخف الجنايات وأطمها ، وأن هذا المخلوق الفقير من وجه قد تعدى حده وطوره قال الشيخ : وإذا كانت الرسل والأنبياء ومن اتبعهم وهم أمم لا يحصى عددهم إلا الله قد أخبروا بوحدانية الله وتفرده بصفات الكمال وهم مستيقنون ذلك لا يرتابون فيه وهم عدد كثير أضعاف أضعاف أى تواتر قدّر ، قد اتفقت أقوالهم وأفعالهم وهدايتهم على ذلك ، علم أنه هو الحق الذى لا ريب فيه وما سواه باطل . انتهى

(الوجه الخامس والسبعون)

قال شيخ الإسلام فى رده قول الفلاسفة ومن تبعهم من المنحرفين فى قولهم : إن العقل يجب تقديمه على السمع ، وإذا تعارض الشرع والعقل وجب تقديم الشرع لأن العقل مصدّق للشرع فى كل ما أخبر به ، لأن العقل دل على أن الرسول ﷺ يجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر ، والعقل يدل على صدق الرسول دلالة عامة مطلقة . انتهى

ووجه خضوع عقل العقلاء المعتبرين للشرع أنهم شاهدوا من براهين الرسالة وآياتها المتعددة المتنوعة ما يضطرهم اضطراراً لا محيد لهم عنه أن محمداً رسول الله حقاً ، فلو قدمنا شيئاً مما قيل إنه معقول على ما جاء به الرسول لعلمنا أنه معقول فاسد لئلا يلزم تناقض قضايا العقل ، فأعظم القضايا التى حكم بها العقل قضية صدق الرسول ﷺ ، فمتى أنكر هؤلاء الملاحدة هذه القضية الكبرى اليقينية قطعنا أنهم معاندون للعقل ، كما أنهم معاندون للشرع ، وإذا تقرر أن العقل دل دلالة عامة مطلقة على صدق الرسول فى كل خبر وحكم كان إيراد المورد على بعض جزئيات الشريعة معلوم الفساد ، وكان علمنا العام بصدق الرسول فى كل شيء يقضى على جميع الجزئيات ، ونهاية الأمر أن يكون الذى وقع فيه الاشكال من المشتبهات ، والمشتبهات يتعين ردها إلى المحكمات ، وهو الأصل العظيم المحكم الذى تواردت عليه جميع البراهين اليقينية ، وهو صدق الرسول وصحة ما جاء به . والله أعلم

قال الشيخ : وإذا كان الأمر كذلك فاذا علم الرجل بالعقل أن هذا رسول الله ، وعلم أنه أخبر بشيء ووجد فى عقله ما ينازعه فى خبره ، كان عقله يوجب عليه أن يسلم موارد النزاع إلى من هو أعلم به منه ، وأن لا يقدم رأيه على قوله ويعلم أن عقله قاصر بالنسبة إليه وانه أعلم بالله وأسمائه وصفاته واليوم الآخر منه ، وان التفاوت الذى بينهما فى العلم بذلك أعظم من التفاوت الذى بين العامة وبين أهل العلم بالطب ، فاذا كان عقله يوجب أن ينقاد

لطبيب يهودى فيما أخبره به من مقدرات الأغذية والأشربة والأضمدة والمسهلات واستعمالها على وجه مخصوص ـ مع ما فى ذلك من الكلفة والألم ـ لظنه أن هذا أعلم بهذا منى وأنى إذا صدقته كان أقرب لحصول الشفاء لى ، مع علمه بأن الطبيب يخطىء كثيراً ، وأن كثيراً من الناس لا يشفى بما يصفه الطبيب ، بل يكون استعماله لما يصفه سبباً فى هلاكه ، ومع ذلك يقبل قوله ويقلده وإن كان ظنه واجتهاده يخالف وصفه ، فكيف حال الخلق مع الرسل عليهم الصلاة والسلام ، والرسل صادقون مصدقون لايجوز أن يكون خبرهم على خلاف ما أخبروا به قط ، وان الذين يعارضون أقوالهم بعقولهم عندهم من الجهل والضلال مالا يحصيه إلا ذو الجلال ، فكيف يجوز أن يعارض مالم يخطىء قط بما لم يصب فى معارضة له قط ؟ انتهى

وقال أيضاً : والذين ادعوا فى بعض المسائل أن لهم معقولا صريحاً يناقض الكتاب قابلهم آخرون من ذوى المعقولات فقالوا : إن قول هؤلاء معلوم بطلانه بصريح المعقول ، فصار ما يدعى معارضة للكتاب من المعقول ليس فيه مايجزم بأنه معقول صحيح إما بشهادة أصحابه عليه وشهادة الأمة ، وإما بظهور تناقضهم ظهوراً لا ارتياب فيه ، وإما لمعارضة آخرين من أهل هذه المعقولات لهم ، بل من تدبر ما يعارضون به الشرع من العقليات وجد ذلك مما يعلم بالعقل الصريح بطلانه ، والناس إذا تنازعوا فى العقول لم يكن قول طائفة لها مذهب حجة على أخرى ، بل يرجع فى ذلك إلى الفطر السليمة التى لم تتغير باعتقاد بغير فطرتها ولا هوى ، وإذا كان فحول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا فى الذكاء والنظر إلى الغاية وهم ليلهم ونهارهم يكدحون فى معرفة هذه العقليات ثم لم يصلوا فيها إلى معقول صريح يناقض الكتاب ، بلى إما إلى حيرة وارتياب وإما إلى اختلاف بين الأحزاب ، فكيف غير هؤلاء ممن لم يبلغ مبلغهم فى الذكاء والذهن ومعرفة ما سلكوه من العقليات ؟ فهذا وأمثاله مما يبين أن من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه لم يعارضه إلا بما هو جهل بسيط أو جهل مركب ، فالأول : كسراب بقيعة

الآية والثانى كظلمات فى بحر لجى الآية ، وأصحاب القرآن والايمان فى نور على نور ـ وذلك لأن الآيات والبراهين دالة على صدق الرسل وأنهم لا يقولون على الله إلا الحق ، وأنهم معصومون فيما يبلغون عن الله من الخبر والطلب ، لا يجوز أن يستقر فى خبرهم عن الله شىء من الخطأ كما اتفق على ذلك جميع المقرين بالرسل من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم ، فوجب أن كل ما يخبر به الرسول عن الله صدق وحق لا يجوز أن يكون فى ذلك شىء مناقض لدليل عقلى ولا سمعى ، فمتى علم المؤمن بالرسول أنه أخبر بشىء من ذلك جزم جزماً قاطعاً أنه حق ، وأنه لا يجوز أن يكون فى الباطن بخلاف ما أخبر به ، وأنه يمتنع أن يعارضه دليل قطعى ولا عقلى ولا سمعى ، وأن كل ما ظن أنه عارضه من ذلك فانما هو حجج داحضة ، وشبه من جنس شبه السوفسطائية ، وإذا كان العقل العالم بصدق الرسول قد شهد له بذلك وأنه يمتنع أن يعارض خبره دليل صحيح ، كان هذا العقل شاهداً بأن كل ما خالف خبر الرسول فهو باطل ، فيكون هذا العقل والسمع جميعاً شهدا ببطلان العقل المخالف للسمع . انتهى

وقال رحمه الله حين تكلم عن الفلاسفة : ثم إنه ليس عندهم من المعقول ما يعرفون به أحد الطرفين ، فيكفى فى ذلك إخبار الرسل عن خلق السموات والأرض وحدوث هذا العالم ، والفلسفة الصحيحة المبنية على المعقولات المحضة توجب عليهم تصديق الرسل فيما أخبروا به ، وتبين أنهم علموا ذلك بطريق يعجزون عنها ، وأنهم أعلم بالأمور الإلهية والمعاد وما يسعد النفوس ويشقيها منهم ، وتدلهم على أن من اتبع الرسل كان سعيدا فى الآخرة ومن كذبهم كان شقياً فى الآخرة ، وأنه لو علم الرجل من الطبيعيات والرياضيات ما عسى أن يعلم وخرج عن دين الرسل كان شقياً ، وأن من أطاع الله ورسوله بحسب طاقته كان سعيدا فى الآخرة وإن لم يعلم شيئاً من ذلك ، ولكن سلفهم أكثروا الكلام فى ذلك لأنهم لم يكن عندهم من آثار الرسل مايهتدون به إلى توحيد الله وعبادته وما ينفع فى الآخرة ، وكان الشرك مستحوذاً عليهم ،

وكان منتهى عقلهم أموراً عقلية كلية كالعلم بالوجود المطلق وانقسامه إلى علة ومعلول وجوهر وعرض ، وتقسيم الجواهر ثم تقسيم الأعراض ، وهذا هو عندهم الحكمة العليا والفلسفة الأولى ، ومنتهى ذلك العلم بالوجود المطلق الذى لا يوجد إلا فى الأذهان دون الأعيان ، ليس فيها علم بموجود معين لا بالله وبملائكته ولا بغير ذلك ، وليس فيها محبة لله ولا عبادة له فليس فيها علم نافع ولا عمل صالح ولا ينجى النفوس من عذاب الله فضلا عن أن يوجب لها السعادة

(الوجه السادس والسبعون)

قال شيخ الاسلام : من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه يجب على الخلق الايمان بالرسول إيماناً مطلقاً جازماً عاماً بتصديقه فى كل ما أخبر به وطاعته فى كل ما أمر ، وأن كل ما عارض ذلك فهو باطل ، وان من قال : يجب تصديق ما أدركته بعقلى ورد ما جاء به الرسول لرأيى وعقلى ، وتقديم عقلى على ما أخبر به الرسول مع تصديقى بأن الرسول صادق فيما أخبر به ، فهو متناقض فاسد العقل ملحد فى الشرع . وأما من قال لا أصدق ما أخبر به حتى أعلمه بعقلى فكفره ظاهر ، وهو ممن قيل به : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وقوله : ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ ومن عارض ما جاءت به الرسل برأيه فله نصيب من قوله : ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ، الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ . والسلطان هو الكتاب المنزل من السماء ، فكل من عارض كتاب الله المنزل بغير كتاب الله الذى قد يكون ناسخاً له أو مفسراً له كان قد جادل فى آيات الله بغير سلطان أتاه . انتهى

(الوجه السابع والسبعون)

جميع الأمم - أهل الأديان من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم حتى المشركين - متفقون على إثبات ربوبية الله ، وأنه الاول الذى ليس قبله شىء ، الخالق لكل شىء ، الرازق المدبر لكل شىء ، وأئمتهم فى هذا الأنبياء والمرسلون وأهل الهدى من العلماء الربانيين أهل العلوم الغزيرة والعقول الوافية والمعارف الصافية الأولين منهم والآخرين على هذا الأصل العظيم ، متفقون على علم وبصيرة ويقين ، قد اطمأنت قلوبهم بذلك وسكنت نفوسهم به وصار فى قلوبهم أكبر الحقائق وأصحها وأوضحها

وخالفهم من هذا شرذمة من زنادقة الدهريين الذين يقولون ﴿ ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ وسلك سبيلهم زنادقة الماديين ، وهم لم ينكروا ذلك عن علم دلهم عليه ولا سمع ولا عقل ولا فطرة ، إنما هو مجرد استبعادات وجحود ومكابرات ، ومع ذلك فأقوالهم فيما يثبتون من النظريات والقول فى العلل غير متفقة ، كل فريق بنظرياتهم الخاطئة فرحون ، ولاخوانهم من الزنادقة معارضون ، فدعهم فى طغيانهم يعمهون ، وفى اضطرابهم وتخالفهم يترددون ، وفى غيهم وجهلهم وسفاهة عقولهم وما انتهت إليه معارفهم فى هذا الأمر من المضحكات يمرحون ، واحمد الله الذى عافاك من هذه البلية الشنعاء والطامة الكبرى ، وقل معترفاً بنعمة الله متبجحاً بفضل الله : آمنت بما أنزل الله من كتبه السماوية ، وآمنت بجميع الأنبياء والمرسلين ، وشهدت بما شهد به لنفسه وشهد به خيار خلقه ﴿ شهد الله أنه لاإلٰه إلا هو العزيز الحكيم . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾

(الوجه الثامن والسبعون)

إن الله ضرب الأمثال فى كتابه لتقرير التوحيد وتقرير الرسالة والمعاد وإبطال قول من ينفيها أو يقدح فى شىء منها ، والأمثال أقيسة عقلية تنبه

العقول والفطر على تقرير الحق والاعتراف به وإبطال الباطل ، وكلها تبطل أقوال المشركين والمكذبين للرسل من مشركين وملحدين ومنحرفين كقوله : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ وقوله : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ﴾ وقوله : ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا ﴾ إلى غير ذلك من الأمثلة المقررة لهذه الأصول العظيمة المبطلة لأقوال المبطلين والمعطلين ، وكذلك ما ضربه الرسول محمد ﷺ من الأمثلة المقررة لأصول الدين

قال شيخ الاسلام رحمه الله : والكتاب والسنة يدل بالأخبار تارة ويدل بالبينة تارة والإرشاد والبيان للأدلة العقلية تارة وخلاصة ما عند أرباب النظر العقلى فى الإلهيات من الأدلة اليقينية والمعارف الإلهية قد جاء به الكتاب والسنة مع زيادات وتكميلات لم يهتد إليها إلا من هداه الله بخطابه . فكل ما قد جاء به الرسول من الأدلة العقلية والمعارف اليقينية فوق ما فى عقول جميع العقلاء من الأولين والآخرين . انتهى

وقال أيضاً : معلوم بالسمع اتصاف الله بالأفعال الاختيارية القائمة به كالاستواء إلى السماء وعلى العرش والقبض والطى والإتيان والمجىء والنزول ونحو ذلك بل والخلق والإحياء والإماتة فان الله وصف نفسه بالأفعال اللازمة والمتعدية ، والفعل المتعدى مستلزم للفعل اللازم ، فان الفعل لا بد له من فاعل سواء كان متعدياً إلى مفعول أو لم يكن . والفاعل لا بد له من فعل سواء كان فعله مقتصراً عليه أو متعدياً إلى غيره ، والفعل المتعدى إلى غيره لا يتعدى حتى يقوم بفاعله إذ كان لا بد من الفاعل ، وهذا معلوم سمعاً وعقلا ، والله تعالى حى قيوم لم يزل موصوفاً بأنه يتكلم بما شاء فعال لما يشاء . انتهى

(الوجه التاسع والسبعون)

قال الله تعالى : ﴿ والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴾ وقال : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ فأخبر أنه يقول الحق وهو الصدق فيما أخبر به ، والعدل فيما حكم به ، وأنه يهدى السبيل فيبين لعباده البراهين والأدلة الدالة على الحق ، ويرى العباد آياته فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، وما أخبر به من الحق ، ودل عليه بالبراهين من العلوم النافعة والمعارف الصادقة مما يقرر به جميع الأصول التى هدى بها عباده على ألسنة رسله ، وما أجاب به كل مبطل أورد الشبه على الحق الجواب القاطع لشبهته المبطل لحجته ، فهو ظاهر واضح للعباد ، وهو من الحقائق التى لا يمكن تغييرها ولا تبديلها ولا قيام علم صحيح ينافيها . بل كل ما خالفها وناقضها علمنا بطلانه على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل

أما على وجه الإجمال فالله يقول الحق ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا ﴾ فكل ما ناقض ذلك فهو باطل فما ذا بعد الحق إلا الضلال

وأما على وجه التفصيل فما يأتى المبطلون بمثل يقدحون فيه بالحق إلا أبطله الله وذكر من البراهين السمعية والعقلية ما يبطله . وقد تتبع العلماء الأعلام جميع ما أورده المبطلون مسألة مسألة فوضحوا بطلانها من جهة الدلالة الشرعية السمعية ومن جهة الدلالة العقلية وتحدوا أهل الباطل تحدياً صحيحاً أنهم لا يأتون بمثل يقدحون فيه بالحق إلا أبطلوه بالبراهين اليقينية والله أعلم

(الوجه الثمانون)

قال تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ وقال تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾ وهذا برهان عقلى قاطع صوره الله

لعقول العقلاء ، وأنه يدل على ربوبية الله ووحدانيته وتوحده وتفرده بالتدبير ، فانه لو فرض معه إله آخر فأما أن يعارضه ويقاومه وحينئذ فلا يخلو إما أن يحصل مراد أحدهما فيكون هو الرب أو يمتنع مراد كل منهما وهو محال لأنه يدل على عجز كل منهما ، أو يوجد مراد الجميع وهذا محال لأنه يقتضى عجز كل واحد منهما مع الانفراد لا مع الاجتماع . فتعين أن المنفرد بالوحدانية والخلق والتدبير هو الله الواحد القهار ، فاذا كان ما ادعاه المشركون من مشاركة غير الله مع الله يقتضى فى العقل المحال وخراب الوجود فكيف يكون حال الدهريين الماديين الذين يزعمون ويفترون أن الطبيعة هى التى أوجدت جميع الموجودات ذواتها وأفعالها وصورها ، وهى مع ذلك لا حياة لها ولا علم ولا قدرة ، هل فوق هذا المحال محال ؟ وهل يتصور أبلغ من هذا الضلال ؟

(الوجه الحادى والثمانون)

قال تعالى : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ فهاتان الآيتان العظيمتان اللتان تجمعان آيات كثيرة وبراهين قاطعة توصل إلى كمال العلم واليقين وصحة ما جاء به الأنبياء والمرسلون وتبطل كل شرك وإلحاد وجحود آياته المشهودة وآياته المسموعة ، فمن تأمل هذه المخلوقات وما احتوت عليه من التدابير الحكيمة وتفكر فى آيات الله القرآنية التى فصلها الله أحسن تفصيل وأحكم فيها الأحكام وأصل الأصول المحكمة وجعلها هداية عامة ورحمة شاملة ودعوة إلى كل خير وصلاح وسبباً إلى كل رشد وهدى وفلاح ، علم علماً لا يمترى فيه أن الذى دبر المخلوقات وفصل الآيات هو الرب العظيم الذى تتضاءل عظمة المخلوقات بأسرها عند عظمته ، وأنه المتوحد بالربوبية والإلهية وسائر صفات الكمال ، وأن رسله صادقون مصدقون ، وأن أعداء الرسل فى مكابرة ومباهتات وعناد ، وفى غى وجهل وضلال

فـفى كل شىء له آية تدل على أنه واحـد

أفى الله شك فاطر السموات والأرض على أحسن خلق وأبدعه وأجمعه لجميع المحاسن وأدله على حكمة خالقه وعظمته وكبريائه ووحدانيته . فتبارك الله رب العالمـين ، وقد ألزم الله المكذبين وقررهم باعترافهم واعتراف الخلق كلهم بتفرد الله بالخلق والتدبير فقال تعالى : ﴿ قل من يرزقـكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ـ إلى قوله ـ فما لـكم كيف تحـكمون ﴾ كما أخبر أن فى إنزال القرآن يتلى عليهم كفاية تامة عن جميع البراهين كفاية لتقدير الحق وإبطال كل باطل قال تعالى : ﴿ أو لم يكفهم انا أنزلنا إليك الـكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾

(الوجه الثانى والثمانون)

نذكر كلاماً جامعاً مفصلا يعترف به كل من له معقول صحيح فى القول فى المعقولات قاله شيخ الاسلام به يتضح غاية الاتضاح أن جميع الملحدين خرجوا عن العقليات الصحيحة وأنه ليس معهم إلا مجرد دعاوٍ باطلة

قال رحمه الله : المعقول هو المعقول الصريح الذى يعرفه الناس بفطرهم التى فطروا عليها من غير أن يتلقاه بعضهم عن بعض كما يعلمون تماثل المتماثلين واختلاف المختلفين ، أعنى اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد والتباين ، فان لفظ الاختلاف يراد به هذا وهذا ، وهذه المعقولات فى العلميات هى التى ذم الله من خالفها بقوله : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ وأما ما يسميه بعض الناس « معقولات » ويخالفه فيه كثير من العقلاء فليس هذا هو العقليات التى يجب لأجلها رد الحس والسمع وينبنى عليه علوم بنى آدم ، بل المعقولات الصحيحة الدقيقة الخفية ترد إلى معقولات بديهية أولية ، بخلاف العقليات الصريحة فان هذا معلوم بفطرة الله ، فاذا جاء فى الحس أو فى الخبر الصحيح ما يظن أنه يخالف ذلك علم أنه غلط ، فكل

من أخبر بما يخالف صحيح المنقول أو صريح المعقول يعلم أنه وقع له غلط وإن كان صادقاً فيما يشهده فى الحس الباطن أو الظاهر ، لكن الغلط وقع فى ظنه الفاسد المخالف لصريح العقل لا فى مجرد الحس ، فان الحس ليس فيه علم بنفى أو إثبات ، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون ، لا يقولون على الله إلا الحق . ولا ينقلون عنه إلا الصدق ، فمن ادعى فى أخبارهم ما يناقض صريح المعقول كان كاذباً ، بل لابد أن يكون ذلك المعقول ليس بصريح أو ذلك المنقول غير صحيح ، فما علم يقينا أنهم أخبروا به يمتنع أن يكون فى العقل ما يناقضه ، وما علم يقينا أن العقل حكم به يمتنع أن يكون فى أخبارهم ما يناقضه . انتهى

وهذا تفصيل عظيم يعترف به جميع أذكياء العقلاء المنصفين ، ويتحدى به المؤمنون أهل العلم كل ملحد ومارق يزعم خلاف ذلك فى جميع المسائل ، وقد تكفل بهذا التحدى على وجه التفصيل هذا الشيخ الامام فى كتابه « العقل والنقل » وأبطل كل مسألة أصولية أو فروعية زعم بعض المتحذلقين مخالفتها للعقل ، وبين أن العقل الصريح موافق للنقل الصحيح فى جميع المسائل والدلائل ، والحمد لله على شرعه الكامل وخلقه الحسن ، فانه تمت كلمة ربك صدقاً وعدلا ، ومن أصدق من الله قيلا ، وأحسن منه حديثاً ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ، الذى أحسن كل شىء خلقه ، صنع الله الذى أتقن كل شىء

(الوجه الثالث والثمانون)

قد تقرر مما تقدم أن أهل الجحود والإلحاد لم يصلوا فى علومهم إلا إلى جهل مركب أو جهل بسيط أو جحود مع العناد ، لأن رؤساءهم وأساطينهم أهل الذكاء والفطنة الذين أفنوا أوقاتهم فى هذه البحوث لم يصلوا إلى يقين تطمئن له قلوبهم ، بل إما إلى حيرة وارتياب ، وإما إلى اختلاف كثير واضطراب ، وإما إلى مكابرة من هؤلاء الأحزاب ، كما عرف ذلك من

مقالاتهم . فاذا كان هؤلاء هم الرؤساء فكيف بمقلديهم الذين لم يبلغوا عشر معشارهم فى الذكاء والفطنة والبحث . فهم كما قال عنهم : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ﴾ إلى آخر الآيات . والمؤمنون بالله وكتبه ورسله على نور من ربهم ويقين من إيمانهم حيث بنوا علومهم ومعارفهم وإيمانهم وأعمالهم على الأصول الصحيحة الثابتة ، وهى نصوص الكتب المنزلة من السماء ونصوص الأنبياء وآيات الله فى الأنفس والآفاق والعقول السليمة والفطر المستقيمة ، ففازوا بخير الدنيا والآخرة ، ورجع الآخرون بالصفقة الخاسرة

فنسأل الله الرب الكريم أن يرزقنا علماً ويقيناً وإيماناً وطمأنينة به وبذكره وسلوكا للصراط المستقيم المشتمل على العلم بالحق والعمل به الموصل إلى كل خير وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب ، ونسأله ونرجوه أن ينصر دينه وكتابه ورسله وعباده المؤمنين ، وأن يصلى على رسوله محمد ﷺ أفضل صلاة وأزكاها وأتمها ، ويسلم عليه تسليما كثيرا هو وجميع الأنبياء والمرسلين ، ومن تبعهم من طبقات المؤمنين . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وتحصل البركات

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله : عبد الرحمن بن ناصر السعدى غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وذلك فى ١٤ رجب سنة ١٣٧٢

وتم نقله من خط المؤلف الشيخ عبد الرحمن فى ٦ رمضان سنة ١٣٧٢ ، بقلم الفقير إلى الله عبد الله بن سليمان العبد الله السلمان غفر الله له ولوالديه

تعريف
بكتاب ﴿ الأدلة القواطع والبراهين ﴾

هذا الكتاب عظيم، ليس له مثيل فيما نعلم فى موضوعه وحسنه ووضوحه ومناسبته للوقت الحاضر، والحاجة والضرورة قد اشتدت إليه، لأن تيار الإلحاد وطغيان المادة جَرَف جمهور الخلق، فمنهم الدعاة والرؤساء المخادعون المغَرّرون، ومنهم أهل السياسة المستعمرون. ومنهم ضعفاء البصائر المغترون. ومنهم السماسرة المأجورون المنافقون، فعمت المصيبة، واشتد الخطب، وعاد الدين الصحيح غريباً كما بدأ غريباً، وصار القابض على دينه الحق كالقابض على الجمر

وهذا الكتاب قد نازل جميع طوائف الملحدين، وتحداهم، وأبطل أصولهم، وفنّد مآخذهم، وهدم قواعدهم، وزلزل بنيانهم، وبين مخالفتهم للعقل والفطرة والحكمة، كما خالفوا جميع الأديان الصحيحة، وتكلم معهم بكل طريق: فتارة يصور مقالاتهم تصويراً واضحاً واقعياً يعرف به كل عاقل بطلان أقوالهم بمجرد تصويرها على وجهها، وتارة يبطل الأصول التى بنوا عليها إلحادهم بالبراهين اليقينية، ويبين أنها أصول فى غاية الضعف والانهيار، وتارة يذكر ما يقابلها من الحق وأصوله، وبراهين الصدق واليقين التى يعرف بها أن ما سواها باطل وضلال، وتارة يذكر تمويهات الملحدين وما زخرفوه من الألفاظ الخادعة لنصر باطلهم وترويجه بين ضعفاء البصائر أتباع كل ناعق، وتارة يشير إلى المسالك التى سلكها من خادع أو انخدع من المنافقين والملبسين. فهو سلاح للمؤمنين، وغذاء للموقنين ودواء لمن قصده الحق من الحائرين، ونور يهتدى به فى متاهات الحيرة والضلال، وعلم يأوى إليه كل طالب حق فى جميع الأحوال، ومع ذلك فقد سلك مع طوائفهم مسلك الإنصاف، وعرض الحقائق على العقول عرضاً واضحاً يقبله كل عاقل

سليم الفطرة والنظر ، فهو كتاب يصلح لجميع طبقات الناس على اختلاف مذاهبهم ، فكلٌّ منه يستمد ، وكل قارىء به ينتفع ، ومخبر الكتاب والوقوف عليه يغنى عن وصفه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العليم الحكيم ، وصلى الله وسلم على نبيه الكريم ، الهادى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وعلى آله وصحبه

أما بعد : فهذا كتاب جليل ، يتضمن أدلة قاطعة وبراهين ساطعة هى نجوم زاهرة فى سماء المشكلات ، وهى شهب تنقضُّ فتدحض شبه الملحدين ، بل هذه الأدلة وهذه البراهين خير معاول لهدم أصولهم وتقويض صروح قواعدهم التى أسست على شفا جرف هار ، وانبنت على دعائم ما أوهنها من دعائم

فحقيق بالقارىء أن يتأمل الكتاب حق التأمل ، ليرى النور كيف يكتسح الظلمات ، وليرى العلم كيف يصرع الجهل ، وليرى الحق كيف يحمل على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق

جزى الله الشيخ عبد الرحمن عن الدين وحامليه ، وعن العلم وذويه ، خير الجزاء بمنه تعالى وكرمه

عبد الله السلمان

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة